

عَفْوُ اللَّهِ الْكَبِيرِ

ابن شهوان

جمع و ترتيب

من خطب و محاضرات فضيلة الشيخ

ابي عبد الله محمد بن سعيد السمراني

حفظه الله تعالى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا
وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا
إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُونَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل

عمران: ١٠٢].

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا
رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ۖ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾

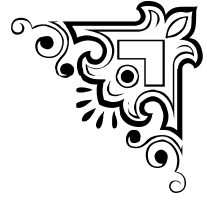
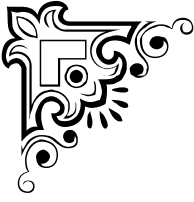
[النساء: ١].

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

• أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ،
وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ
ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

• أَمَّا بَعْدُ:



اللَّهُ هُوَ الْعَفْوُ الْكَرِيمُ

فَمِنْ صِفَاتِ رَبَّنَا جَلَّ وَعَلَا صِفَةُ الْعَفْوِ؛ فَهُوَ الْعَفْوُ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي عَفْوِهِ، يَعْفُو عَنِ الْمُذْنِبِينَ فَلَا يُعَاجِلُهُم بِالْعُقُوبَةِ، وَيَغْفِرُ ذُنُوبَهُمْ فَيُزِيلُهَا وَيُزِيلُ أَثَارَهَا عَنْهُمْ.

فَاللَّهُ ﷻ هَذَا وَصْفُهُ الْمُسْتَقَرُّ اللَّازِمُ الذَّائِبِيُّ، وَمُعَامَلَتُهُ لِعِبَادِهِ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ بِالْعَفْوِ وَالْمَغْفِرَةِ، فَلَوْلَا عَفْوُهُ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ. وَهُوَ الْعَفْوُ فَعَفْوُهُ وَسِعَ الْوَرَى لَوْلَاهُ غَارَ الْأَرْضِ بِالسُّكَّانِ

وَمِنْ كَمَالِ عَفْوِهِ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ إِذَا تَابُوا إِلَيْهِ صَفَحَ عَنْهُمْ، وَمَحَا عَنْهُمْ أَخْطَاءَهُمْ وَزَلَّاتِهِمْ وَعَافَاهُمْ.

رَبِّ اعْفُفْ عَنْهُ وَعَافِهِ فَلَأَنْتَ أَوْلَى مَنْ عَفَا أَيُّ: تَجَاوَزَ وَاصْفَحَ - كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ قَدِيمًا -.

اللَّهُ ﷻ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُعَاقِبَ، لَكِنَّهُ يَعْفُو جَلَّ وَعَلَا مَعَ الْقُدْرَةِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا﴾ [النساء: ٤٩]؛ فَيَبِينُ أَنَّ هَذَا الْعَفْوَ إِنَّمَا هُوَ مَعَ الْقُدْرَةِ، فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ لَهُ الْحَقُّ وَيَعْفُو، وَلَكِنَّهُ يَعْفُو مَعَ الْعِجْزِ لَا مَعَ الْقُدْرَةِ، وَتَمَامٌ

الْعَفْوُ أَنْ يَكُونَ مَعَ الْقُدْرَةِ، وَاللَّهُ ﷻ لَهُ تَمَامُ الْعَفْوِ فِي تَمَامِ الْقُدْرَةِ، وَهُوَ -تَعَالَى-
الْعَفْوُ الْقَدِيرُ. (*)

الْعَفْوُ هُوَ الصَّفْحُ عَنِ الذُّنُوبِ، وَتَرَكَ مُجَاوِزَةَ الْأَمْرِ حَتَّى يَتِمَّ تَمَامُهُ، مَعَ
الْقُدْرَةِ عَلَى إِنْفَازِ الْعَذَابِ فِي مَنْ تَجَاوَزَ.

فَالْعَفْوُ الَّذِي أزالَ عَنِ النُّفُوسِ ظُلْمَةَ الزَّلَّاتِ بِرَحْمَتِهِ، وَعَنِ الْقُلُوبِ وَحْشَةَ
الْعَفَلَاتِ بِكَرَامَتِهِ.

وَالْعَفْوُ فِي حَقِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَارَةٌ عَنِ إِزَالَةِ آثَارِ الذُّنُوبِ بِالْكَلِيَّةِ، وَالْعَفْوُ أَبْلَغُ
مِنَ الْمَغْفِرَةِ؛ لِأَنَّ الْغُفْرَانَ يُشْعِرُ بِالسَّتْرِ، وَأَمَّا الْعَفْوُ فَيُشْعِرُ بِالْمَحْوِ، وَالْمَحْوُ أَبْلَغُ
مِنَ السَّتْرِ لَا مَحَالَةَ. (* / ٢).

قَالَ رَبِّهِ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ (٣) الَّذِي يَرُويهِ عَنِ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «يَا
عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّوَنِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي».

ذَكَرَ هَذَا عَقِبَ قَوْلِهِ: «يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَعْفِرُ
الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَعْفِرْ لَكُمْ».

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ -بِاخْتِصَارِ يَسِيرٍ- مِنْ سِلْسِلَةٍ: «مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى» (الْمُحَاضِرَةُ التَّاسِعَةُ)
- الْأَرْبَعَاءُ ١٦ مِنْ رَجَبِ ١٤٣٣ هـ / ٦-٦-٢٠١٢ م.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ -بِاخْتِصَارِ يَسِيرٍ- مِنْ سِلْسِلَةٍ: «شَرَحُ مَعَانِي أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى»
(الْمُحَاضِرَةُ الثَّانِيَّةُ) - الثَّلَاثَاءُ ١٠ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى ١٤٢٧ هـ / ٦-٦-٢٠٠٦ م.

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: (٤ / ١٩٩٤-١٩٩٥، رَقْمُ ٢٥٧٧)، مِنْ حَدِيثِ: أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَتَضَمَّنَ ذَلِكَ أَنَّ مَا يَفْعَلُهُ -تَعَالَى- بِهِمْ مِنْ غُفْرَانٍ زَلَّاتِهِمْ، وَإِجَابَةِ دَعَوَاتِهِمْ، وَتَفْرِيجِ كُرْبَاتِهِمْ؛ لَيْسَ لِحَلْبِ مَنفَعَةٍ مِنْهُمْ، وَلَا لِدَفْعِ مَضْرَرَةٍ يَتَوَقَّعُهَا مِنْهُمْ، كَمَا هُوَ عَادَةُ الْمَخْلُوقِ الَّذِي يَنْفَعُ غَيْرَهُ لِيُكَافِئَهُ بِنَفْعٍ مِثْلِهِ، أَوْ لِيُدْفَعَ عَنْهُ ضَرَرًا. (*)

وَيَقُولُ رَبَّنَا -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-: «يَا ابْنَ آدَمَ! أَنْفِقْ أَنْفِقْ عَلَيْكَ»، يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَمِينُهُ مَلَأَى، سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ» (٢). (*) (٢).



(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «الْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ أَصْلُ الْعِلْمِ» - الْجُمُعَةُ ١٧ مِنْ رَجَبٍ ١٤٣٥ هـ | ١٦-٥-٢٠١٤ م.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الصَّحِيحِ»: ٣٥٢/٨، رَقْم (٤٦٨٤)، وَمُسْلِمٌ فِي «الصَّحِيحِ»: ٦٩١/٢ وَ ٦٩٠، رَقْم (٩٩٣)، مِنْ حَدِيثِ: أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: قَالَ اللَّهُ ﷻ: «أَنْفِقْ أَنْفِقْ عَلَيْكَ»، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِيضْ مَا فِي يَدِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْمِيزَانَ يُخْفِضُ وَيَرْفَعُ». وَفِي رِوَايَةٍ لِهَمَا: «يَمِينُ اللَّهِ مَلَأَى...».

(*) (٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «رَمَضَانَ وَدَعْوَةَ لِلْجُودِ وَالْكَرَمِ» - الْجُمُعَةُ ٤ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٢٦ هـ | ٧-١٠-٢٠٠٥ م.

سَلُّوا اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ

إِذَا آمَنَ الْإِنْسَانُ إِيمَانًا صَاحِحًا بِصِفَةِ الْعَفْوِ سَأَلَ اللَّهَ الْعَفْوَ؛ فَعَنْ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ رضي عنه قَالَ: قَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ عَلَى الْمِنْبَرِ ثُمَّ بَكَى، فَقَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صلوات الله عليه وآله عَامَ الْأَوَّلِ عَلَى الْمِنْبَرِ ثُمَّ بَكَى، فَقَالَ: «سَلُّوا اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ - اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ -؛ فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يُعْطَ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْرًا مِنَ الْعَافِيَةِ»^(١). رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

وَأَبُو بَكْرٍ رضي عنه يَقُومُ حَيْثُ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ، وَيَبْكِي كَمَا بَكَى!!
عَنْ أَنَسٍ رضي عنه قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ صلوات الله عليه وآله رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيُّ الدُّعَاءِ أَفْضَلُ؟

قَالَ: «سَلِ اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

ثُمَّ أَتَاهُ الْغَدَاةَ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! أَيُّ الدُّعَاءِ أَفْضَلُ؟

(١) أخرجه الترمذي: (٥/٥٥٧، رقم ٣٥٥٨).

والحديث صححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب»: (٣/٣٢٤، رقم ٣٣٨٧).

قَالَ: «سَلِ اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» (١). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ»، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ».

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنْ عَلِمْتُ أَيَّ لَيْلَةٍ هِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ مَا أَقُولُ فِيهَا؟

قَالَ: «قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي» (٢). رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

وَهَذَا يُدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يُبَغْيَى عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَسْتَكْثِرَ الدُّعَاءَ بِالْعَفْوِ؛ لِأَنَّ الْعُمْدَةَ الْكُبْرَى فِي نَيْلِ السَّعَادَةِ الْآخِرَوِيَّةِ هِيَ مَغْفِرَةُ الذُّنُوبِ وَعَفْوُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهُ.

هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِيهَا مَا يَبْعَثُ رَغَبَاتِ الرَّاعِبِينَ إِلَى إِدَامَةِ الطَّلَبِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ يَعْفُوَ وَيَصْفَحَ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ اخْتَارَ لِأَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهِ.. وَهِيَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ كَمَا فِي حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟

قَالَ: «عَائِشَةُ».

(١) أخرجه ابن ماجه: (٢/، رقم ٣٨٤٨)، والبخاري في «الأدب المفرد»: (ص ١٦٥، رقم ٦٣٧).

والحديث صححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد»: (ص ٢٣٧-٢٣٨، رقم ٤٩٦).

(٢) أخرجه الترمذي: (٥/٥٣٤، رقم ٣٥١٣)، وابن ماجه: (٢/١٢٦٥، رقم ٣٨٥٠).

والحديث صححه الألباني في «الصحيحة»: (٧/١٠٠٨-١٠١٢، رقم ٣٣٣٧).

قَالَ: قُلْتُ: فَمِنْ الرِّجَالِ؟

قَالَ: «أَبُوهَا» (١).

فَاخْتَارَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ - وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْهِ - أَحَبَّ الدُّعَاءِ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَشْرَفِ الْأَوْقَاتِ؛ لِأَنَّهَا سَأَلَتْ سُؤَالَ مُحَدَّدًا، لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِنْ عَلِمَتْ، وَفِيهَا الدُّعَاءُ يُسْتَجَابُ، وَفِيهَا تَتَحَقَّقُ الرَّغَائِبُ مِنْ رَبِّ الْأَرْبَابِ، فَقَالَتْ: لَوْ عَلِمْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ؛ فَمَا أَقُولُ؟

فَاخْتَارَ لَهَا الرَّسُولُ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي».

لَوْ كَانَ يَعْلَمُ أَفْضَلَ مِنْهُ لَدَلَّهَا عَلَيْهِ.. لَوْ كَانَ يَعْلَمُ مَا هُوَ فَوْقَ هَذَا لَدَلَّهَا عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ دَلَّهَا عَلَى أَفْضَلِ مَا هُوَ أَفْضَلُ؛ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي».

فَهَذَا يَحْفَظُكَ وَيُؤْزِكُ عَلَى الْإِكْتِثَارِ مِنْ طَلَبِ الْعَفْوِ مِنَ الْعَفْوِ الْكَرِيمِ سُبْحَانَهُ، وَهُوَ لِلْعَفْوِ أَهْلٌ.

فَمَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْعَفْوِ فَقَدْ أَفْلَحَ وَفَازَ، وَرَبِحَ أَعْظَمَ الرَّبْحِ، وَأُوتِيَ الْخَيْرَ بِحَذَائِيرِهِ.

الْعَفْوُ يُرْجَى مِنْ بَنِي آدَمَ فَكَيْفَ لَا يُرْجَى مِنَ الرَّبِّ

(١) أخرجه البخاري: (١٨/٧)، رقم (٣٦٦٢) و(٧٤/٨)، رقم (٤٣٥٨)، ومسلم:

(٤/١٨٥٦، رقم ٢٣٨٤).

يَا رَبِّ إِنَّ عَظُمْتَ ذُنُوبِي كَثْرَةً فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
 إِنَّ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ فَمَنْ الَّذِي يَرْجُو وَيَدْعُو الْمُجْرِمُ
 مَا لِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِلَّا الرَّجَا وَجَمِيلُ عَفْوِكَ ثُمَّ إِنَِّّي مُذْنِبٌ

اللَّهُمَّ أْتِمِّ عَلَيْنَا نِعْمَةَ الْإِسْلَامِ، وَأْتِمِّ عَلَيْنَا نِعْمَةَ الْإِيمَانِ، وَأَفْضِلْ عَلَيْنَا بِنِعْمَةِ
 الْإِحْسَانِ يَا كَرِيمُ يَا مَنَّانُ. (*)



(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ - بِاخْتِصَارٍ يَسِيرٍ - مِنْ سِلْسِلَةٍ: «مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى» (الْمُحَاضِرَةُ التَّاسِعَةُ)
 - الْأَرْبَعَاءُ ١٦ مِنْ رَجَبِ ١٤٣٣ هـ / ٦-٦-٢٠١٢ م.

اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الْحَلِيمُ الْوَدُودُ

عِبَادَ اللَّهِ! مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْحُسْنَى: الْحَلِيمُ؛ وَالْحَلِيمُ ذُو الصَّفْحِ وَالْإِنَاءَةِ، الَّذِي لَا يَسْتَفْزُهُ غَضَبٌ، وَلَا يَسْتَخْفُهُ جَهْلٌ جَاهِلٍ وَلَا عِصْيَانُ عَاصٍ، وَلَا يَسْتَحِقُّ الصَّافِحُ مَعَ الْعَجْزِ اسْمَ الْحَلِيمِ، إِنَّمَا الْحَلِيمُ هُوَ الصَّفُوحُ مَعَ الْقُدْرَةِ، وَذُو الْإِنَاءَةِ الَّذِي لَا يَعْجَلُ بِالْعُقُوبَةِ.

الْحَلِيمُ الَّذِي يُدِرُّ عَلَى خَلْقِهِ النِّعَمَ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ مَعَ مَعَاصِيهِمْ وَكَثْرَةَ زَلَاتِهِمْ، فَيَحْلُمُ عَنْ مَقَابَلَةِ الْعَاصِينَ بِعِصْيَانِهِمْ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى إِنْفَازِ الْعُقُوبَةِ فِيهِمْ، وَلَكِنَّهُ يَسْتَعْتِبُهُمْ كَيْ يَتُوبُوا، وَيَمْهَلُهُمْ كَيْ يُنِيُوا.

وَهُوَ الَّذِي لَهُ الْحِلْمُ الْكَامِلُ الَّذِي وَسِعَ أَهْلَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ حَيْثُ أَمْهَلَهُمْ وَلَمْ يُعَاجِلْهُمْ بِالْعُقُوبَةِ لِيَتُوبُوا، وَلَوْ شَاءَ لَأَخَذَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَوَرَ صُدُورَهَا مِنْهُمْ؛ فَإِنَّ الذُّنُوبَ تَقْتَضِي تَرْتِبَ آثَارِهَا عَلَيْهَا مِنَ الْعُقُوبَاتِ الْعَاجِلَةِ الْمُتَنَوِّعَةِ، وَلَكِنَّ حِلْمَهُ - سُبْحَانَهُ - هُوَ الَّذِي اقْتَضَى إِمْهَالَهُمْ؛ كَمَا قَالَ رَبُّنَا - جَلَّتْ قُدْرَتُهُ -:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَأَنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ

بَصِيرًا ﴿ [فاطر: ٤٥].

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل: ٦١]. (*) .

وَالْوُدُودُ: اسْمٌ مَأْخُودٌ مِنَ الْوُدِّ، وَفِيهِ وَجْهَانِ:

بِمَعْنَى الْمُوْدُوْدِ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِهِ؛ لِمَا يَتَعَرَّفُونَهُ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ وَكَثْرَةِ عَوَائِدِهِ لَدَيْهِمْ؛ فَهَذَا وَجْهٌ.

وَأَمَّا الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْوُدُودُ بِمَعْنَى الْوَادِ؛ أَيَّ أَنَّهُ يُوَدُّ عِبَادَهُ الصَّالِحِينَ، بِمَعْنَى أَنْ يَرْضَى عَنْهُمْ وَيَتَقَبَّلَ أَعْمَالَهُمْ.

وَقَدْ يَكُونُ الْمَعْنَى أَنَّهُ يُوَدِّدُهُمْ إِلَىٰ خَلْقِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]؛ يَعْنِي مَحَبَّةً فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ.

قَالَ رَبُّنَا -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤].

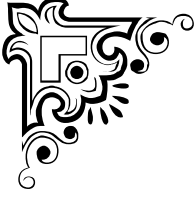

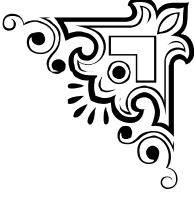
فَالْوُدُودُ مَأْخُودٌ مِنَ الْوُدِّ بِمَعْنَى خَالِصِ الْمَحَبَّةِ، فَالْوُدُودُ هُوَ الْمَحْبُوبُ الْمَحْبُوبُ؛ بِمَعْنَى وَادٍ، فَهُوَ مُوْدُودٌ، فَهُوَ الْوَادُّ لِأَنْبِيَائِهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ الْمَحْبُوبُ لَهُمْ، بَلْ لَا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْهُ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ -بِاخْتِصَارٍ يَسِيرٍ- مِنْ سِلْسِلَةِ: «شَرْحُ مَعَانِي أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى» (الْمَحَاضِرَةُ الثَّانِيَّةُ) - الثَّلَاثَاءُ ١٠ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى ١٤٢٧ هـ / ٦-٦-٢٠٠٦ م.

فَهَذَانِ مَعْنِيَانِ لِهَذَا الْإِسْمِ الشَّرِيفِ مِنْ أَسْمَاءِ رَبِّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْحُسْنَى .
 وَهُوَ الْوُدُّ وَيُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّهُ هَذَا الَّذِي جَعَلَ الْمَحَبَّةَ فِي قُلُوبِهِمْ وَجَازَاهُمْ بِحُبِّ ثَانٍ
 هَذَا هُوَ الْإِحْسَانُ حَقًّا لَا مَعَا لَكِنْ يُحِبُّ شُكْرَهُمْ وَشُكْرَهُمْ
 وَهُوَ الشُّكْرُ فَلَنْ يُضَيِّعَ سَعْيَهُمْ مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ
 كَلًّا وَلَا عَمَلٌ لَدَيْهِ ضَائِعٌ إِنْ عَذَّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نَعَّمُوا
 أَحْبَابُهُ وَالْفَضْلُ لِلْمَنَانِ بِهِمْ وَجَازَاهُمْ بِحُبِّ ثَانٍ
 وَضَةً وَلَا لِتَوَقُّعِ الشُّكْرَانِ لَا لِاحْتِيَاجٍ مِنْهُ لِلشُّكْرَانِ
 لَكِنْ يُضَاعَفُهُ بِإِلَّا حُسْبَانٍ هُوَ أَوْجَبَ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ الشَّانِ
 إِنْ كَانَ بِالْإِخْلَاصِ وَالْإِحْسَانِ فَبِفَضْلِهِ وَالْحَمْدُ لِلْمَنَانِ (*)



(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ - بِإِخْتِصَارٍ يَسِيرٍ - مِنْ سِلْسِلَةٍ: «شَرَحَ مَعَانِي أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى»
 (الْمَحَاضِرَةُ الثَّانِيَّةُ) - الثَّلَاثَاءُ ١٠ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى ١٤٢٧ هـ / ٦-٦-٢٠٠٦ م.

إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ

«يَا مَنْ عَزَمَ السَّفَرَ إِلَى اللَّهِ وَالِدَّارِ الْآخِرَةِ، قَدْ رُفِعَ لَكَ عِلْمٌ فَشَمِّرْ إِلَيْهِ فَقَدْ أَمَكْنَ التَّشْمِيرُ، وَاجْعَلْ سَيْرَكَ بَيْنَ مُطَالَعَةِ مِثَّتِهِ وَمُشَاهَدَةِ عَيْبِ النَّفْسِ وَالْعَمَلِ وَالتَّقْصِيرِ، فَمَا أَبْقَى مَشْهُدُ النُّعْمَةِ وَالذَّنْبِ لِلْعَارِفِ مِنْ حَسَنَةٍ يَقُولُ: هَذِهِ مُنْجِيَّتِي مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ، مَا الْمَعْوَلُ إِلَّا عَلَى عَفْوِهِ وَمَغْفِرَتِهِ، فَكُلُّ أَحَدٍ إِلَيْهِمَا فَاقِيرٌ، أَبُوؤُكَ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوؤُكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، أَنَا الْمُدْنِبُ الْمِسْكِينُ وَأَنْتَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ.»

مَا تَسَاوَى أَعْمَالُكَ لَوْ سَلِمْتَ مِمَّا يُبْطِلُهَا أَدْنَى نِعْمَةٍ مِنْ نِعْمَةِ عَلَيْكَ، وَأَنْتَ مُرْتَهَنٌ بِشُكْرِهَا مِنْ حِينَ أُرْسِلَ بِهَا إِلَيْكَ؛ فَهَلْ رَعَيْتَهَا - بِاللَّهِ - حَقَّ رِعَايَتِهَا وَهِيَ فِي تَصْرِيْفِكَ وَطَوْعُ يَدَيْكَ؟!!!

فَتَعَلَّقْ بِحَبْلِ الرَّجَاءِ، وَادْخُلْ مِنْ بَابِ التَّوْبَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ. نَهَجَ لِلْعَبْدِ طَرِيقَ النَّجَاةِ وَفَتَحَ لَهُ أَبْوَابَهَا، وَعَرَّفَهُ طُرُقَ تَحْصِيلِ السَّعَادَةِ وَأَعْطَاهُ أَسْبَابَهَا، وَحَذَّرَهُ مِنْ وَبَالِ مَعْصِيَتِهِ، وَأَشْهَدَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى غَيْرِهِ سُؤْمَهَا وَعِقَابَهَا، وَقَالَ: إِنْ أَطَعْتَ فَبِفَضْلِي وَأَنَا أَشْكُرُ، وَإِنْ عَصَيْتُ فَبِقَضَائِي وَأَنَا أَغْفِرُ؛ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

وَأَزَاحَ عَنِ الْعَبْدِ الْعِلَلَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَسْتَعِيدَ بِهِ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَوَعَدَهُ أَنْ يَشْكُرَ لَهُ الْقَلِيلَ مِنَ الْعَمَلِ، وَيَغْفِرَ لَهُ الْكَثِيرَ مِنَ الزَّلَلِ؛ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

أَعْطَاهُ مَا يَشْكُرُ عَلَيْهِ، ثُمَّ شَكَرَهُ عَلَى إِحْسَانِهِ إِلَى نَفْسِهِ لَا عَلَى إِحْسَانِهِ إِلَيْهِ، وَوَعَدَهُ عَلَى إِحْسَانِهِ لِنَفْسِهِ أَنْ يُحْسِنَ جَزَاءَهُ وَيُقَرِّبَهُ لَدَيْهِ، وَأَنْ يَغْفِرَ لَهُ خَطَايَاهُ إِذَا تَابَ مِنْهَا وَلَا يَفْضَحْهُ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

وَثَقَّتْ بِعَفْوِهِ هَفَوَاتُ الْمُذْنِبِينَ فَوَسَّعَتْهَا، وَعَكَفَتْ بِكَرَمِهِ آمَالَ الْمُحْسِنِينَ فَمَا قَطَعَ طَمَعَهَا، وَخَرَقَتْ السَّعَ الطَّبَاقَ دَعَوَاتُ التَّائِبِينَ وَالسَّائِلِينَ فَسَمِعَهَا، وَوَسَّعَ الْخَلَائِقَ عَفْوُهُ وَمَغْفِرَتُهُ وَرِزْقُهُ، فَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا، وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا؛ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

يَجُودُ عَلَى عِبْدِهِ بِالنَّوَالِ قَبْلَ السُّؤَالِ، وَيُعْطِي سَائِلَهُ وَمُؤَمِّلَهُ فَوْقَ مَا تَعَلَّقَتْ بِهِ مِنْهُمْ الْأَمَالَ، وَيَغْفِرُ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَلَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُهُ عَدَدَ الْأَمْوَاجِ وَالْحَصَى وَالتُّرَابِ وَالرَّمَالِ؛ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بَوْلِدِهَا، وَأَفْرَحُ بِتَوْبَةِ الْعَائِدِ التَّائِبِ مِنَ الْفَاقِدِ لِرَاحِلَتِهِ الَّتِي عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فِي الْأَرْضِ الْمُهْلِكَةِ إِذَا وَجَدَهَا، وَأَشْكُرُ لِلْقَلِيلِ مِنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ، فَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنَ الْخَيْرِ شَكَرَهَا وَحَمَدَهَا؛ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

تَعَرَّفَ إِلَى عِبَادِهِ بِأَسْمَائِهِ وَأَوْصَافِهِ، وَتَحَبَّبَ إِلَيْهِمْ بِحِلْمِهِ وَآلَائِهِ، وَلَمْ تَمْنَعَهُ مَعَاصِيهِمْ بَأَنْ جَادَ عَلَيْهِمْ بِالْآلَائِهِ، وَوَعَدَ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَحْسَنَ طَاعَتَهُ بِمَغْفِرَةِ ذُنُوبِهِ يَوْمَ لِقَائِهِ؛ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

السَّعَادَةُ كُلُّهَا فِي طَاعَتِهِ، وَالْأَرْبَاحُ كُلُّهَا فِي مُعَامَلَتِهِ، وَالْمَحَنُ وَالْبَلَايَا كُلُّهَا فِي مَعْصِيَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ؛ فَلَيْسَ لِلْعَبْدِ أَنْفَعُ مِنْ شُكْرِهِ وَتَوْبَتِهِ؛ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.
أَفَاضَ عَلَيَّ خَلْقِهِ النُّعْمَةَ، وَكَتَبَ عَلَيَّ نَفْسِيهِ الرَّحْمَةَ، وَضَمَّنَ الْكِتَابَ الَّذِي كَتَبَهُ إِنَّ رَحْمَتَهُ تَغْلِبُ غَضَبَهُ؛ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

يُطَاعُ فَيُشْكَرُ؛ وَطَاعَتُهُ مِنْ تَوْفِيقِهِ وَفَضْلِهِ، وَيَعْصَى فَيَحْلُمُ؛ وَمَعْصِيَةُ الْعَبْدِ مِنْ ظُلْمِهِ وَجَهْلِهِ، وَيَتُوبُ إِلَيْهِ فَاعِلُ الْقَبِيحِ فَيَغْفِرُ لَهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَطُّ مِنْ أَهْلِهِ؛ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

الْحَسَنَةُ عِنْدَهُ بِعَشْرَةِ أَمْثَالِهَا أَوْ يُضَاعَفُهَا بِلَا عَدَدٍ وَلَا حُسْبَانٍ، وَالسَّيِّئَةُ عِنْدَهُ بِوَاحِدَةٍ وَمَصِيرُهَا إِلَى الْعَفْوِ وَالْغُفْرَانِ، وَبَابُ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ لَدَيْهِ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ؛ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

بَابُهُ الْكَرِيمُ مُنَاحِ الْأَمْالِ وَمَحَطُّ الْأَوْزَارِ، وَسَمَاءُ عَطَايَاهُ لَا تُقْلَعُ عَنِ الْغَيْثِ بَلْ هِيَ مِدْرَارٌ، وَيَمِينُهُ مَلَأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةُ سَحَاءِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؛ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

لَا يَلْقَى وَصَايَاهُ إِلَّا الصَّابِرُونَ، وَلَا يَقُوزُ بِعَطَايَاهُ إِلَّا الشَّاكِرُونَ، وَلَا يَهْلِكُ عَلَيْهِ إِلَّا الْهَالِكُونَ، وَلَا يَشْقَى بِعَذَابِهِ إِلَّا الْمُتَمَرِّدُونَ؛ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

فِيَاكَ أَيُّهَا الْمُتَمَرِّدُ أَنْ يَأْخُذَكَ عَلَى غِرَّةٍ فَإِنَّهُ غَيُورٌ، وَإِذَا أَقَمْتَ عَلَيَّ مَعْصِيَتِهِ وَهُوَ يَمُدُّكَ بِنِعْمَتِهِ فَاحْذَرُهُ فَإِنَّهُ لَمْ يَهْمَلِكْ لِكِنَّهِ صَبُورٌ، وَبُشْرَاكَ أَيُّهَا التَّائِبُ بِمَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ؛ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ.

مَنْ عَلِمَ أَنَّ الرَّبَّ شُكُورٌ تَنَوَّعَ فِي مُعَامَلَتِهِ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ تَعَلَّقَ
بِأَذْيَالِ مَغْفِرَتِهِ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ رَحْمَتَهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ لَمْ يَيْأَسْ مِنْ رَحْمَتِهِ؛ إِنَّ رَبَّنَا
لِغَفُورٌ شُكُورٌ.

مَنْ تَعَلَّقَ بِصِفَةِ مِنْ صِفَاتِهِ أَخَذَتْهُ بِيَدِهِ حَتَّى تُدْخِلَهُ عَلَيْهِ، وَمَنْ سَارَ إِلَيْهِ
بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصَلَ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَحَبَّهُ أَحَبَّ أَسْمَاءُهُ وَصِفَاتِهِ وَكَانَتْ أَثَرُ
شَيْءٍ لَدَيْهِ.

حَيَاةُ الْقُلُوبِ فِي مَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَكَمَالُ الْجَوَارِحِ فِي التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ
بِطَاعَتِهِ، وَالْقِيَامُ بِخِدْمَتِهِ، وَكَمَالُ الْأَلْسِنَةِ بِذِكْرِهِ وَالشَّاءُ عَلَيْهِ بِأَوْصَافِ مَدْحِهِ،
فَأَهْلُ شُكْرِهِ أَهْلُ زِيَادَتِهِ، وَأَهْلُ ذِكْرِهِ أَهْلُ مُجَالَسَتِهِ، وَأَهْلُ طَاعَتِهِ أَهْلُ كَرَامَتِهِ،
وَأَهْلُ مَعْصِيَتِهِ لَا يُقْنَطُهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، إِنْ تَابُوا فَهُوَ حَسِيبُهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَتُوبُوا فَهُوَ
طَسِيبُهُمْ، يَبْتَلِيهِمْ بِأَنْوَاعِ الْمَصَائِبِ لِيُكْفِرَ عَنْهُمْ الْخَطَايَا وَيُطَهِّرَهُمْ مِنَ الْمَعَايِبِ؛
إِنَّهُ غَفُورٌ شُكُورٌ» (١). (*)



(١) خاتمة كتاب «عدة الصابرين» لابن القيم: (ص ٥٤٥-٥٤٨).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «السَّيْرُ إِلَى اللَّهِ وَالِدَارِ الْآخِرَةِ» - الْجُمُعَةُ ٢٥ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ

اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ

«إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الَّذِي قَدْ كَمَّلَ فِي رَحْمَتِهِ، وَأَحْسَنَ إِلَيَّ خَلْقَهُ بِأَنْوَاعِ الْإِحْسَانِ، وَتَحَبَّبَ إِلَيْهِمْ بِصُنُوفِ النِّعَمِ، وَوَسَّعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا، وَأَوْسَعَ كُلَّ مَخْلُوقٍ نِعْمَةً وَفَضْلًا، فَوَسَّعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَوَسَّعَتْ نِعْمَتُهُ كُلَّ حَيٍّ، وَعَمَّ إِحْسَانُهُ الْبَرَايَا، وَوَصَلَ جُودُهُ إِلَيَّ جَمِيعَ الْمَوْجُودَاتِ؛ فَلَا تَسْتَغْنِي عَنِ إِحْسَانِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ وَلَا أَقْلَ مِنْهَا، فَبَلَغَتْ رَحْمَتُهُ حَيْثُ بَلَغَ عِلْمُهُ؛ قَالَ رَبُّنَا ﷻ: ﴿رَبَّنَا وَسَّعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَتُهُ وَعِلْمُهُ﴾ [غافر: ٧]، فَبَلَغَتْ رَحْمَتُهُ حَيْثُ بَلَغَ عِلْمُهُ.

وَأَخْبَرَنَا -سُبْحَانَهُ- أَنَّهُ ذُو الرَّحْمَةِ؛ فَكَانَ صَاحِبَ الرَّحْمَةِ الْحَقِيقِيَّةِ الْعَظِيمَةِ الْوَاسِعَةِ؛ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

فَلَا مَخْلُوقَ إِلَّا وَقَدْ وَصَلَتْ إِلَيْهِ رَحْمَةُ اللَّهِ، وَغَمَرَهُ فَضْلُهُ -تَعَالَى- وَإِحْسَانُهُ^(١).

(١) «الصلاة» لابن القيم: (ص ١٤٣)، بتصرف يسير.

وَسَمَى جَلَّ وَعَلَا نَفْسَهُ «الرَّحْمَنَ»، وَهَذَا الْإِسْمُ دَالٌّ عَلَى سَعَةِ رَحْمَتِهِ،
وَعُمُومِ إِحْسَانِهِ، وَجَزِيلِ بَرِّهِ، وَوَاسِعِ فَضْلِهِ» (١).

«وَالرَّحْمَنُ»: دَالٌّ عَلَى الصِّفَةِ الْقَائِمَةِ بِهِ سُبْحَانَهُ.

وَالرَّحِيمُ»: دَالٌّ عَلَى تَعَلُّقِهَا بِالْمَرْحُومِ، فَالرَّحْمَنُ لِلْوَصْفِ، وَالرَّحِيمُ
لِلْفِعْلِ.

فَالرَّحْمَنُ»: دَالٌّ عَلَى أَنَّ الرَّحْمَةَ صِفَتُهُ، وَالرَّحِيمُ»: دَالٌّ عَلَى أَنَّهُ يَرْحَمُ
خَلْقَهُ؛ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، وَلَمْ يَجِئْ قَطُّ
رَحْمَنٌ بِهِمْ؛ فَعَلِمَ أَنَّ «الرَّحْمَنَ»: هُوَ الْمَوْصُوفُ بِالرَّحْمَةِ، وَالرَّحِيمَ»: هُوَ
الرَّاحِمُ بِرَحْمَتِهِ» (٢)؛ كَثِيرُ الرَّحْمَةِ، عَظِيمُهَا، بَلِيغُهَا وَوَاسِعُهَا.

وَرَحْمَةُ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا: عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ.

فَأَمَّا الْعَامَّةُ: فَهِيَ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ، فَكُلُّ الْخَلْقِ مَرْحُومُونَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ،
وَلَوْلَا رَحْمَةُ اللَّهِ مَا أَكَلُوا وَمَا شَرَبُوا وَمَا اكْتَسَوْا وَمَا سَكَنُوا، وَلَكِنَّ اللَّهَ
رَحِيمٌ؛ فَهَيَّا لَهُمْ مَا تَقَوْمُ بِهِ أَبْدَانُهُمْ مِنَ الْمَعِيشَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ؛ فَهَذِهِ هِيَ
الرَّحْمَةُ الْعَامَّةُ.

(١) «تيسير الكريم الرحمن»: (ص ٨٢٨).

(٢) «بدائع الفوائد»: (١/ ٢٤).

وَأَمَّا رَحْمَتُهُ الْخَاصَّةُ: فَهِيَ خَاصَّةٌ بِالْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ تَسْتَمِرُّ رَحْمَتُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فِي الدُّنْيَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ - تَعَالَى - بِحُصُولِ مَا تَقُومُ بِهِ أَبْدَانُهُمْ، وَفِي الْآخِرَةِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ - تَعَالَى - بِحُصُولِ مَا تَقُومُ بِهِ أَدْيَانُهُمْ.

«وَرَحْمَتُهُ - سُبْحَانَهُ - مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ؛ كَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَحَيَاتِهِ وَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَإِحْسَانِهِ، فَيَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ.

وَلَيْسَ كَذَلِكَ غَضَبُهُ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ، وَلَا يَكُونُ غَضَبَانِ دَائِمًا غَضَبًا لَا يَتَّصِرُ أَنْفِكَأَهُ؛ بَلْ يَقُولُ رُسُلُهُ وَأَعْلَمُ الْخَلْقِ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا فِي «حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ» - وَهُوَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»^(١) - : «قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ».

كَذَا يَقُولُ الْأَنْبِيَاءُ فِي الْمَوْقِفِ عِنْدَمَا يَطْلُبُ الْخَلْقُ مِنْهُمْ الشَّفَاعَةَ عِنْدَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِبَدءِ الْحِسَابِ؛ فَيَقُولُ كُلُّ: «إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ».

فَالْغَضَبُ مِنْ صِفَاتِ الْفِعْلِ وَلَيْسَ مِنْ صِفَاتِ الذَّاتِ، وَصِفَةُ الْفِعْلِ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْمَشِيئَةِ، صِفَاتُ الْفِعْلِ هِيَ الَّتِي إِذَا شَاءَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَتَى بِهَا، وَإِذَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَأْتِ بِهَا، فَهَذِهِ صِفَاتُ الْفِعْلِ؛ وَمِنْهَا الْغَضَبُ، وَمِنْهَا الضَّحْكُ، وَمِنْهَا الرِّضَا، وَمِنْهَا النَّزُولُ، وَمِنْهَا الْإِسْتِوَاءُ؛ فَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْمَشِيئَةِ، فَكُلُّ صِفَةٍ تَعَلَّقَتْ بِالْمَشِيئَةِ فَهِيَ مِنْ صِفَاتِ الْفِعْلِ.

(١) «صحيح البخاري»: (٨ / ٣٩٥ - ٣٩٦، رقم ٤٧١٢)، و «صحيح مسلم»: (١ / ١٨٤)

- (١٨٦، رقم ١٩٤)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه).

وَأَمَّا صِفَاتُ الذَّاتِ: فَهِيَ لَا يَنْفَكُ عَنْهَا اتِّصَافُ الذَّاتِ بِهَا وَلَا تَنْفَكُ هِيَ عَنِ الذَّاتِ.. صِفَاتُ الذَّاتِ لَا تَنْفَكُ عَنِ رَبَّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِحَالٍ، فَهِيَ مُلَازِمَةٌ لِلذَّاتِ، وَمِنْهَا صِفَةُ الرَّحْمَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، وَأَمَّا صِفَةُ الْغَضَبِ فَهَذِهِ صِفَةُ فِعْلٍ؛ وَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْمَشِيئَةِ، فَإِذَا وُجِدَ سَبَبُهَا وَغَضِبَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَهَذِهِ صِفَةُ مَنْ صِفَاتِ الْفِعْلِ، لَا يَكُونُ غَضَبَانِ دَائِمًا غَضَبًا لَا يُتَصَوَّرُ انْفِكَائُهُ؛ بَلْ «إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ».

رَحْمَةُ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وَغَضَبُهُ لَمْ يَسِعْ كُلَّ شَيْءٍ، وَهُوَ -سُبْحَانَهُ- كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، وَلَمْ يَكْتُبْ عَلَى نَفْسِهِ الْغَضَبَ، وَوَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا، وَلَمْ يَسِعْ كُلَّ شَيْءٍ غَضَبًا وَانْتِقَامًا» (١)، -سُبْحَانَهُ- هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ.

وَهَذَا هُوَ اللَّائِقُ اللَّيْقُ بِشَأْنِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكُنَّا جَمِيعًا خَاسِرِينَ هَالِكِينَ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ وَمِنْ سَخَطِهِ وَمِنْ أَلِيمِ عِقَابِهِ، وَتَتُوبُ إِلَيْهِ، وَنَرْجُو رَحْمَتَهُ وَكَرَمَهُ وَفَضْلَهُ وَلُطْفَهُ.

فَسُبْحَانَ رَبِّي الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الَّذِي عَمَّتْ رَحْمَتُهُ أَهْلَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ، وَوَسِعَتْ جَمِيعَ الْخَلْقِ فِي كُلِّ الْأَنَاتِ وَاللَّحَظَاتِ، وَسَعَتْ رَحْمَتِهِ تَتَضَمَّنُ أَنَّهُ لَا يَهْلِكُ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ تَوْحِيدِهِ وَمَحَبَّتِهِ؛ فَإِنَّهُ وَاسِعٌ

(١) «الفوائد»: (ص ١٨١-١٨٢).

الرَّحْمَةِ، لَا يَخْرُجُ عَنْ دَائِرَةِ رَحْمَتِهِ إِلَّا الْأَشْقِيَاءُ الْمَحْرُومُونَ، وَلَا أَشَقَى مِمَّنْ لَمْ تَسَعُهُ رَحْمَتُهُ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ.

يَكْفِيكَ مَنْ وَسِعَ الْخَلَائِقَ رَحْمَةً وَكِفَايَةَ ذُو الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ (١)

قَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا - وَهُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ -: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ

الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وَهَذَا وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ، وَهُوَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ وَلَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ، وَهُوَ خَيْرٌ مِنْهُ لِعِبَادِهِ، وَهُوَ صَادِقُ الْمَقَالِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، إِنَّهُ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَخَيْرِ الرَّاحِمِينَ، وَرَحْمَتُهُ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ خَيْرٍ؛ أَرْحَمُ بِنَا مِنْ كُلِّ رَاحِمٍ، أَرْحَمُ بِنَا مِنْ آبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا وَأَوْلَادِنَا وَأَنْفُسِنَا.

«فَكُلُّ رَاحِمٍ لِلْعَبْدِ؛ فَاللَّهُ أَرْحَمُ بِهِ مِنْهُ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، لَوْ جُمِعَتْ رَحِمَاتُ الْخَلْقِ كُلِّهَا لَكَانَتْ رَحْمَةُ اللَّهِ أَشَدَّ وَأَعْظَمَ، وَمَا تَبْلُغُ هَذِهِ الرَّحِمَاتُ مِنْ رَحْمَةِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ صلی الله علیه و آله و سلم رَجُلٌ وَمَعَهُ صَبِيٌّ؛ فَجَعَلَ يَضُمُّهُ إِلَيْهِ؛ رَحْمَةً بِهِ وَحَنَانًا وَبِرًّا.

فَقَالَ النَّبِيُّ صلی الله علیه و آله و سلم: «أَتَرَ حَمَهُ؟».

قَالَ: نَعَمْ.

(١) البيت لابن القيم في نونيته: «الكافية الشافية»: (٣ / ٩٠٢)، البيت رقم (٤٨٢٦).

قَالَ: «فَاللَّهُ أَرْحَمُ بِكَ مِنْكَ بِهِ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»^(١). وَهَذَا الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ»، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

أَرْحَمُ مَا يَكُونُ مِنَ الْخَلْقِ بِالْخَلْقِ الْأُمُّ بَوْلِدِهَا؛ فَإِنَّ رَحْمَةَ الْأُمِّ وَلَدَهَا لَا يُسَاوِيهَا شَيْءٌ مِنْ رَحْمَةِ النَّاسِ أَبَدًا، حَتَّى الْأَبُ لَا يَرْحَمُ أَوْلَادَهُ مِثْلَ أُمَّهِمْ فِي الْغَالِبِ.

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ صلوات الله وسلامته عليه سَبْيِي، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَحْلِبُ تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ.

فَقَالَ النَّبِيُّ صلوات الله وسلامته عليه: «أَتَرُونَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟».

قُلْنَا: لَا - وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى الْأَلَّا تَطْرَحُهَا -.

فَقَالَ: «اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدِهَا»^(٢). وَالْحَدِيثُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ».

وَأَيْنَ تَقَعُ رَحْمَةُ الْوَالِدَةِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّتِي وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ؛ فَهُوَ أَرْحَمُ بِالْعَبْدِ مِنَ الْوَالِدَةِ بَوْلِدِهَا الرَّفِيقَةَ بِهِ فِي حَمْلِهِ وَرِضَاعِهِ وَفِصَالِهِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ»: (ص ١٣٧، رَقْم ٣٧٧)، وَالْبَزَارُ فِي «الْمُسْنَدِ»:

(١٧ / ١٥٤، رَقْم ٩٧٦١)، وَالنَّسَائِيُّ فِي «السَّنَنِ الْكُبْرَى»: (٧ / ١٤٦، رَقْم ٧٦٦٤)،

وَالْبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ»: (٩ / ٣٣٧ و ٣٣٨، رَقْم ٦٧٣٢).

وَالْحَدِيثُ صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ»: (ص ١٥٠، رَقْم ٢٩٠).

(٢) «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»: (١٠ / ٤٢٦ - ٤٢٧، رَقْم ٥٩٩٩)، وَ «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»: (٤ /

٢١٠٩، رَقْم ٢٧٥٤).

كُلُّ الرَّاحِمِينَ إِذَا اجْتَمَعَتْ رَحَمَاتُهُمْ كُلَّهُمْ؛ فَلَيْسَتْ بِشَيْءٍ عِنْدَ رَحْمَةِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَيَدُلُّكَ عَلَى هَذَا قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ -وَالْحَدِيثُ فِي «الصَّحِيحِينَ» (١) - قَالَ ﷺ: «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاخَمُ الْخَلْقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشِيَةً أَنْ تُصِيبَهُ» (٢).

هَذِهِ هِيَ الرَّحْمَةُ الَّتِي هِيَ صِفَةٌ فِعْلٍ.

وَأَمَّا الرَّحْمَةُ مِنْ حَيْثُ هِيَ صِفَةٌ ذَاتٍ؛ فَإِنَّهَا لَا تَنْقَسِمُ، فَالرَّحْمَةُ صِفَةٌ ذَاتٍ بِاعْتِبَارِ تَعَلُّقِهَا بِالذَّاتِ، حَيْثُ لَا تَنْفَكُ عَنِ الذَّاتِ وَلَا تَنْفَكُ عَنْهَا الذَّاتُ، وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ تَعَلَّقَ الرَّحْمَةَ بِالْمَشِيئَةِ وَإِعْمَالَ هَذِهِ الرَّحْمَةَ لِمَنْ يَرْحَمُهُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فَهَذِهِ صِفَةٌ فِعْلٍ، فَهِيَ هُنَا مُتَعَلِّقَةٌ بِالْمَشِيئَةِ.

هُنَاكَ صِفَاتٌ تَكُونُ صِفَةً ذَاتٍ بِاعْتِبَارٍ وَصِفَةً فِعْلٍ بِاعْتِبَارٍ:

صِفَةُ الْخَلْقِ: صِفَةٌ ذَاتٍ بِاعْتِبَارِ تَعَلُّقِهَا بِالذَّاتِ، فَذَاتُ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَوْصُوفَةٌ بِصِفَةِ الْخَلْقِ وَلَا مَخْلُوقٌ، فَاللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَظِيمُ وَلَهُ

(١) «صحيح البخاري»: (١٠/٤٣١، رقم ٦٠٠٠)، و«صحيح مسلم»: (٤/٢١٠٨، رقم

٢٧٥٢)، من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي رواية للبخاري: (١١/٣٠١، رقم ٦٤٦٩): «...، فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْئَسْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ».

(٢) «شرح العقيدة الواسطية» ضمن مجموع فتاوى ورسائل العثيمين: (٨/٢١١)،

هَذِهِ الصِّفَةُ الْعَظِيمَةُ، وَأَمَّا عِنْدَ خَلْقِ الْخَلْقِ وَبَرِّئِهِمْ وَتَعَلُّقِ هَذِهِ الصِّفَةِ بِالْمَشِيئَةِ بِخَلْقِهِمْ؛ فَهِيَ - حِينِيذٌ - تَكُونُ صِفَةً فِعْلٍ.

كَذَلِكَ صِفَةُ الْكَلَامِ: فَذَاتُ رَبَّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَوْصُوفَةٌ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، وَأَمَّا إِذَا تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ جَلَّ وَعَلَا وَبِمَا شَاءَ مِنْ أَمْرِ رَبِّنَا؛ فَهِيَ صِفَةٌ فِعْلٍ لِتَعَلُّقِ الصِّفَةِ بِالْمَشِيئَةِ.

هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي مَعَنَا: فِيهِ انْقِسَامُ صِفَةِ الرَّحْمَةِ إِلَى مِائَةِ جُزْءٍ، جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ فِي مِائَةِ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاخَمُ الْخَلْقُ حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشِيَةً أَنْ تُصِيبَهُ.

صِفَةُ الْفِعْلِ: هِيَ الَّتِي تَقْبَلُ هَذِهِ الْقِسْمَةَ.

وَأَمَّا صِفَةُ الذَّاتِ: فَهِيَ مَوْصُوفٌ بِهَا الذَّاتُ لَا تَنْفَكُ عَنِ الذَّاتِ وَلَا تَنْفَكُ عَنْهَا الذَّاتُ.

لَا يُمَكِّنُ لِلْوَاصِفِينَ أَنْ يُعْبَرُوا عَنْ جُزْءٍ يَسِيرٍ جِدًّا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّتِي بَثَّهَا وَنَشَرَهَا عَلَى الْعِبَادِ، وَأَنْتَ لَوْ تَأَمَّلْتَ الْعَالَمَ بِعَيْنِ الْبَصِيرَةِ؛ لَرَأَيْتَهُ مُمْتَلِنًا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ الْوَاحِدَةِ كَامِتِلَاءِ الْبَحْرِ بِمَائِهِ وَالْجَوِّ بِهَوَائِهِ.

وَمِنْ آثَارِ هَذِهِ الرَّحْمَةِ الَّتِي أَنْزَلَهَا: أَنَّ الدَّابَّةَ تَرْفَعُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشِيَةً أَنْ تُصِيبَهُ، وَقَدْ أَعْطَاكَ اللَّهُ - تَعَالَى - مِنَ الرَّحْمَةِ الْوَاحِدَةِ عَطَايَا كَرِيمَةً عَزِيزَةً؛ فَقَدْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ ابْتِدَاءً بِأَجْزَلِ الْمَوَاهِبِ وَأَفْضَلِ الْعَطَايَا؛ مِنْ حُسْنِ

الصُّورَةَ، وَكَمَالَ الْخَلْقَةِ، وَقَوَامِ الْبِنْيَةِ، وَإِعْدَادِ الْأَلَةِ، وَإِتْمَامِ الْإِرَادَةِ، وَتَعْدِيلِ الْقَامَةِ، وَتَمَامِ الْأَدَاةِ.

وَمَا مَتَّعَكَ مِنْ رُوحِ الْحَيَاةِ، وَفَضَّلَكَ بِهِ مِنْ حَيَاةِ الْأَرْوَاحِ، وَمَا أَكْرَمَكَ بِهِ مِنْ قَبُولِ الْعِلْمِ، وَهَدَاكَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ - سُبْحَانَهُ - الَّتِي هِيَ أَسْنَى جَوَائِزِهِ، وَمَنَّ عَلَيْكَ بِالْإِيْمَانِ وَالطَّاعَةِ - وَهُمَا أَجَلُ النَّعْمِ عَلَى الْإِطْلَاقِ - وَالْكَوْنِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَرْحُومَةِ، وَمَنَّ عَلَيْكَ بِمَعْرِفَةِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، إِلَى سَائِرِ مَا لَدَيْكَ مِنَ النَّعْمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ.

فَمَرْجُوٌّ مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ أَنْ يُتِمَّ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ مَنْ بَدَأَ بِالْإِحْسَانِ فَعَلَيْهِ الْإِتْمَامُ، وَيَجْعَلُ لَكَ مِنْ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ رَحْمَةً الْحَظُّ الْوَافِرُ.

أَسْأَلُ اللَّهَ - تَعَالَى - أَلَّا يُخَيِّبَ آمَالَنَا مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ بِفَضْلِهِ، إِنَّهُ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ الرَّاحِمُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ.

«وَبِرَحْمَتِهِ اسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ بِاسْمِ الرَّحْمَنِ؛ قَالَ ﷻ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]؛ لِأَنَّ الْعَرْشَ مُحِيطٌ بِالْمَخْلُوقَاتِ، قَدْ وَسَعَهَا، وَالرَّحْمَةُ مُحِيطَةٌ بِالْخَلْقِ وَاسِعَةٌ لَهُمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

فَاسْتَوَى عَلَى أَوْسَعِ الْمَخْلُوقَاتِ بِأَوْسَعِ الصِّفَاتِ؛ فَلِذَلِكَ وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، اسْتَوَى - تَعَالَى - عَلَى عَرْشِهِ، وَقَالَ - سُبْحَانَهُ - وَهُوَ الرَّحْمَنُ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

فَكَمَا أَنَّ الْعَرْشَ مُحِيطٌ بِالْمَخْلُوقَاتِ، وَهُوَ مِنْ خَلْقِهِ؛ فَرَحْمَتُهُ -تَعَالَى- مُحِيطَةٌ بِالْخَلْقِ وَاسِعَةٌ لَهُمْ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾؛ فَاسْتَوَى عَلَى أَوْسَعِ الْمَخْلُوقَاتِ بِأَوْسَعِ الصِّفَاتِ، فَلِذَلِكَ وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ.

وَلَمَّا اسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ بِهَذَا الْإِسْمِ: «الرَّحْمَنِ» الَّذِي اشْتَقُّهُ مِنْ صِفَتِهِ وَتَسَمَّى بِهِ دُونَ خَلْقِهِ؛ كَتَبَ بِمُقْتَضَاهُ عَلَى نَفْسِهِ يَوْمَ اسْتَوَاهُ عَلَى عَرْشِهِ حِينَ قَضَى الْخَلْقَ.. كَتَبَ كِتَابًا؛ فَهُوَ عِنْدَهُ وَضَعَهُ عَلَى عَرْشِهِ: أَنَّ رَحْمَتَهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ.

وَكَانَ هَذَا الْكِتَابُ الْعَظِيمُ الشَّانِ كَالْعَهْدِ مِنْهُ -سُبْحَانَهُ- لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا بِالرَّحْمَةِ لَهُمْ، وَالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ عَنْهُمْ، وَالْمَغْفِرَةِ وَالتَّجَاوُزِ، وَالسِّرِّ وَالْإِمْهَالِ، وَالْحِلْمِ وَالْأَنَانَةِ؛ فَكَانَ قِيَامُ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ بِمَضْمُونِ هَذَا الْكِتَابِ، الَّذِي لَوْلَاهُ لَكَانَ لِلْخَلْقِ شَأْنٌ آخَرَ^(١).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيمَا أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا»^(٢)؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي».

(١) «مختصر الصواعق»: (ص ٣٦٨-٣٦٩).

(٢) «صحيح البخاري»: (٦/٢٨٧، رقم ٣١٩٤)، و«صحيح مسلم»: (٤/٢١٠٧-).

وَفِي كَوْنِهِ عِنْدَهُ - سُبْحَانَهُ - زِيَادَةُ تَشْرِيفٍ وَتَكْرِيمٍ وَتَعْظِيمٍ وَنَفْحِيمٍ،
فَبِرَحْمَتِهِ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولَهُ ﷺ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابَهُ، وَعَلَّمَنَا مِنَ الْجَهَالَةِ، وَهَدَانَا
مِنَ الضَّلَالَةِ، وَبَصَّرَنَا مِنَ الْعَمَى، وَأَرْشَدَنَا مِنَ الْغَيِّ، فَشَرَعَهُ وَأَمْرُهُ نَزَلَ بِالرَّحْمَةِ
وَاشْتَمَلَ عَلَى الرَّحْمَةِ، وَأَوْصَلَ إِلَى الرَّحْمَةِ الْأَبَدِيَّةِ وَالسَّعَادَةِ السَّرْمَدِيَّةِ.

فَبِنِعْمَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ: بِإِرْسَالِ رُسُلِهِ إِلَيْهِمْ، وَإِنْزَالِ كُتُبِهِ عَلَيْهِمْ، وَتَعْرِيفِهِمْ
أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، وَمَا يُحِبُّهُ وَمَا يُبْغِضُهُ؛ أَعْظَمَ النِّعَمِ وَأَجْلَهَا وَأَعْلَاهَا وَأَفْضَلُهَا، بَلْ لَا
نِسْبَةَ لِرَحْمَتِهِمْ بِالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالغَيْثِ وَالنَّبَاتِ إِلَى رَحْمَتِهِمْ بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ
وَالشَّرَائِعِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَأَيْنَ هَذِهِ مِنْ تِلْكَ؟!

وَبِرَحْمَتِهِ عَرَفْنَا أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ، فَعَرَفْنَا أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالَهُ، عَرَفْنَا رَبَّنَا
تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ ذَلِكَ مَا عَرَفْنَا بِهِ رَبَّنَا وَمَوْلَانَا.

وَبِرَحْمَتِهِ عَلَّمَنَا مَا لَمْ نَكُنْ نَعْلَمُ، وَأَرْشَدَنَا لِمَصَالِحِ دِينِنَا وَدُنْيَانَا،
وَبِرَحْمَتِهِ - تَعَالَى - أَدَّرَ عَلَيْنَا النِّعَمَ وَصَرَفَ عَنَّا النِّقَمَ، وَبِرَحْمَتِهِ وَجَدَتِ
الْمَخْلُوقَاتُ، وَبِرَحْمَتِهِ حَصَلَتْ لَهَا أَنْوَاعُ الْكَمَالَاتِ، وَبِرَحْمَتِهِ أَطْلَعَ الشَّمْسُ
وَالْقَمَرَ، وَجَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَبَسَطَ الْأَرْضَ، وَجَعَلَهَا مِهَادًا وَفِرَاشًا، وَكَفَاتَا
لِلْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ، وَبِرَحْمَتِهِ سَخَّرَ لَنَا الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَالْأَنْعَامَ؛ وَذَلَّلَهَا مُتَقَادَةً
لِلرُّكُوبِ وَالْحَمَلِ وَالْأَكْلِ وَالدَّرِّ.

وَمِنْ رَحْمَتِهِ مَا قَالَهُ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ: ﴿وَرَحِمْتُ رَيْكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾
[الزخرف: ٣٢]؛ أَي: رَحْمَةُ اللَّهِ بِخَلْقِهِ خَيْرٌ لَهُمْ مِمَّا بَأْيَدِيهِمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَمَتَاعِ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وَمِنْ رَحْمَتِهِ أَنَّهُ لَا يُؤَاخِذُنَا بِالْغَفْلَةِ عَنْ شُكْرِ نِعَمِهِ وَالْقُصُورِ عَنْ إِحْصَائِهَا
وَالْعَجْزِ عَنِ الْقِيَامِ بِأَدْنَاهَا، وَمِنْ رَحْمَتِهِ إِدَامَتُهَا عَلَيْنَا وَإِدْرَارُهَا فِي كُلِّ لَحْظَةٍ
وَعِنْدَ كُلِّ نَفْسٍ تَنْفَسُهُ وَحَرَكَةٍ نَتَحَرَّكُهَا؛ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا
تُحْصَوْنَهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

وَمَا أَحْسَنَ مَا خَتَمَ بِهِ هَذَا الْإِمْتِنَانَ الَّذِي لَا يَلْتَبِسُ عَلَى إِنْسَانٍ؛ بِالْإِشَارَةِ إِلَى
عَظِيمِ غُفْرَانِهِ وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْنَهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ
رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]، فَمَا أَحْسَنَ مَا خَتَمَ بِهِ هَذَا الْإِمْتِنَانَ، الَّذِي لَا يَلْتَبِسُ عَلَى
إِنْسَانٍ؛ بِالْإِشَارَةِ إِلَى عَظِيمِ غُفْرَانِهِ وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَمَا أَوْقَعَ هَذَا التَّذْيِيلَ الْجَلِيلَ؛
وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، بَعْدَ امْتِنَانِهِ بِنِعَمِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَهِيَ
لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْنَهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، مَا
أَوْقَعَ هَذَا التَّذْيِيلَ الْجَلِيلَ وَأَحَبَّهُ إِلَى قُلُوبِ الْعَارِفِينَ بِأَسْرَارِ التَّنْزِيلِ.

وَمِنْ رَحْمَتِهِ مَا قَالَهُ عَنْ نَفْسِهِ: ﴿وَرُبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

فَهُوَ مَعَ كَوْنِهِ غَنِيًّا عَنْ خَلْقِهِ؛ فَهُوَ ذُو رَحْمَةٍ بِهِمْ، لَا يَكُونُ غِنَاهُ عَنْهُمْ مَانِعًا
مِنْ رَحْمَتِهِ لَهُمْ، وَمَا أَحْسَنَ هَذَا الْكَلَامَ الرَّبَّانِيَّ وَأَبْلَغَهُ، وَمَا أَقْوَى الْإِقْتِرَانَ بَيْنَ
الْغِنَى وَالرَّحْمَةِ فِي هَذَا الْمَقَامِ؛ ﴿وَرُبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾، فَإِنَّ الرَّحْمَةَ لَهُمْ
مَعَ الْغِنَى عَنْهُمْ هِيَ غَايَةُ التَّفْضُلِ وَالتَّطَوُّلِ.

وَمِنْ رَحْمَتِهِ مَا قَالَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿نَبِيَّ عِبَادِي أَيْ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠].

وَفِي هَذِهِ الْأَيَّةِ لَطَائِفٌ؛ مِنْهَا: أَنَّهُ أَكَّدَ ذِكْرَ الرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِمُؤَكَّدَاتٍ ثَلَاثَةٍ،
 أَوَّلُهَا: قَوْلُهُ (أَنِّي)، وَثَانِيهَا (أَنَا)، وَثَالِثُهَا (التَّعْرِيفُ) فِي (الْعَفْوَرُ الرَّحِيمُ)، وَهَذَا
 يُدُلُّ عَلَى تَغْلِيْبِ جَانِبِ الرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ وَلَمْ يَقُلْ فِي ذِكْرِ الْعَذَابِ: إِنِّي أَنَا
 الْمُعَذَّبُ! وَلَمْ يَصِفْ نَفْسَهُ بِذَلِكَ جَلَّ وَعَلَا؛ بَلْ قَالَ عَلَى سَبِيلِ الْإِخْبَارِ: ﴿وَأَنَّ
 عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾.

وَأَمَّا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِرَحْمَتِهِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِغُفْرَانِهِ، فَقَدْ أَتَى بِهِ وَاصِفًا بِهِ نَفْسَهُ مُؤَكَّدًا
 ذَلِكَ فِي ذِكْرِهِ بِقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: (أَنِّي)، وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى: (أَنَا)، وَكَذَلِكَ بِ(التَّعْرِيفِ)
 فِي قَوْلِهِ: (الْعَفْوَرُ الرَّحِيمُ)؛ ﴿﴿ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْعَفْوَرُ الرَّحِيمُ ﴾﴾، فَالْغُفْرَانُ
 صِفَتُهُ، وَالْمَغْفِرَةُ وَالرَّحْمَةُ صِفَتُهُ جَلَّ وَعَلَا، وَأَمَّا الْعَذَابُ فَقَدْ أَخْبَرَ عَنْهُ، وَلَمْ يَصِفْ
 نَفْسَهُ بِهِ ﷺ؛ فَلَمْ يَقُلْ: إِنِّي أَنَا الْمُعَذَّبُ! وَإِنَّمَا قَالَ عَلَى سَبِيلِ الْإِخْبَارِ وَلَمْ يَصِفْ
 نَفْسَهُ بِذَلِكَ: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾.

وَمِنْ رَحْمَتِهِ أَنْ خَلَقَ لِلذَّكْرِ مِنَ الْحَيَوَانِ أَشْيَاءَ مِنْ جِنْسِهِ، وَأَلْقَى بَيْنَهُمَا
 الْمَحَبَّةَ وَالرَّحْمَةَ لِيَقَعَ بَيْنَهُمَا التَّوَاصُلُ الَّذِي بِهِ دَوَامُ التَّنَاسُلِ، وَانْتِفَاعُ الزَّوْجَيْنِ،
 وَتَمَتُّعُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِصَاحِبِهِ.

وَمِنْ رَحْمَتِهِ أَحْوَجَ الْخَلْقِ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ لِتَتِمَّ بَيْنَهُمْ مَصَالِحُهُمْ، وَلَوْ
 أَغْنَى بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ لَتَعَطَّلَتْ مَصَالِحُهُمْ وَفَسَدَ نِظَامُهُمْ.

وَمِنْ رَحْمَتِهِ بِهِمْ أَنْ جَعَلَ فِيهِمُ الْغَنِيَّ وَالْفَقِيرَ، وَالْعَزِيزَ وَالذَّلِيلَ، وَالْعَاجِزَ
 وَالْقَادِرَ، وَالرَّاعِيَّ وَالْمُرْعِيَّ، ثُمَّ أَفْقَرَ الْجَمِيعِ إِلَيْهِ، ثُمَّ عَمَّ الْجَمِيعَ بِرَحْمَتِهِ. (*).

(*): مَا مَرَّ ذِكْرُهُ -بِاخْتِصَارٍ يَسِيرٍ- مِنْ سِلْسِلَةٍ: «مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى» (الْمُحَاضِرَةُ الثَّلَاثَةُ)

- الْأَحَدُ ١٣ مِنْ رَجَبِ ١٤٣٣ هـ | ٣-٦-٢٠١٢ م.

لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الْعَفْوِ الْكَرِيمِ!

عِبَادَ اللَّهِ! «إِنَّ الْمُؤْمِنَ الْمُوَحَّدَ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ مُلَازِمٌ لِلْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، وَهَذَا هُوَ الْوَاجِبُ وَهُوَ النَّافِعُ، وَبِهِ تَحْصُلُ السَّعَادَةُ، وَيُخْشَى عَلَى الْعَبْدِ مِنْ خُلُقَيْنِ رَذِيلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَسْتَوْلِيَ عَلَيْهِ الْخَوْفُ حَتَّى يَقْنَطَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَرَوْحِهِ.

الثَّانِي: أَنْ يَتَجَارَى بِهِنَّ الرَّجَاءُ حَتَّى يَأْمَنَ مَكْرَ اللَّهِ وَعُقُوبَتَهُ، فَتَمْتَلِكُ بِهِ الْحَالُ إِلَى هَذَا فَقَدْ ضَيَّعَ وَاجِبَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، اللَّذَيْنِ هُمَا مِنْ أَكْبَرِ أُصُولِ التَّوْحِيدِ وَوَاجِبَاتِ الْإِيمَانِ.

وَلِلْقَنُوطِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَالْيَأْسِ مِنْ رَوْحِهِ سَبَبَانِ مَحْدُورَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يُسْرِفَ الْعَبْدُ عَلَى نَفْسِهِ، وَيَتَجَرَّأَ عَلَى الْمَحَارِمِ فَيَصِرُّ عَلَيْهَا، وَيُصَمِّمَ عَلَى الْإِقَامَةِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، وَيَقْطَعَ طَمَعَهُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ لِأَجْلِ أَنَّهُ مُقِيمٌ عَلَى الْأَسْبَابِ الَّتِي تَمْنَعُ الرَّحْمَةَ.

فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَصِيرَ لَهُ هَذَا وَصْفًا وَخُلُقًا لَازِمًا، وَهَذَا غَايَةٌ مَا يُرِيدُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْعَبْدِ، وَمَتَى وَصَلَ إِلَى هَذَا الْحَدِّ؛ لَمْ يُرَجَّ لَهُ خَيْرٌ إِلَّا بِتَوْبَةٍ نَصُوحٍ وَإِقْلَاعٍ قَوِيٍّ.

الثَّانِي: أَنْ يَقْوَى خَوْفَ الْعَبْدِ بِمَا جَنَّتْ يَدَاهُ مِنَ الْجَرَائِمِ، وَيَضْعُفَ عِلْمَهُ بِمَا لِلَّهِ مِنْ وَاسِعِ الرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ، وَيَظُنُّ بِجَهْلِهِ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ لَهُ وَلَا يَرْحَمُهُ وَلَوْ تَابَ وَأَنَابَ، وَتَضْعُفَ إِرَادَتَهُ فَيَأْسَ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَهَذَا مِنَ الْمَحَازِيرِ الضَّارَّةِ النَّاشِئَةِ مِنْ ضَعْفِ عِلْمِ الْعَبْدِ بِرَبِّهِ وَمَا لَهُ مِنَ الْحُقُوقِ، وَمِنْ ضَعْفِ النَّفْسِ وَعَجْزِهَا وَمَهَانَتِهَا.

فَلَوْ عَرَفَ هَذَا رَبَّهُ وَلَمْ يَخْلُدْ إِلَى الْكَسَلِ؛ لَعَلِمَ أَنَّ أَدْنَى سَعْيٍ يُوصِلُهُ إِلَى رَبِّهِ وَإِلَى رَحْمَتِهِ وَجُودِهِ وَكَرَمِهِ.

وَلِلْأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ - أَيْضًا - سَبَبَانِ مُهْلِكَانِ:

أَحَدُهُمَا: إِعْرَاضُ الْعَبْدِ عَنِ الدِّينِ، وَغَفْلَتُهُ عَنْ مَعْرِفَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا لَهُ مِنَ الْحُقُوقِ، وَتَهَاوُنُهُ بِذَلِكَ، فَلَا يَزَالُ مُعْرِضًا غَافِلًا مُقْصِرًا عَنِ الْوَاجِبَاتِ، مُنْهَمَكًا فِي الْمُحَرَّمَاتِ، حَتَّى يَضْمَحِلَّ خَوْفَ اللَّهِ مِنْ قَلْبِهِ، وَلَا يَبْقَى فِي قَلْبِهِ مِنَ الْإِيمَانِ شَيْءٌ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ يَحْمِلُ عَلَى خَوْفِ اللَّهِ وَخَوْفِ عِقَابِهِ الدُّنْيَوِيِّ وَالْآخِرَوِيِّ.

وَالسَّبَبُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ عَابِدًا جَاهِلًا، مُعْجَبًا بِنَفْسِهِ، مَعْرُورًا بِعَمَلِهِ، فَلَا يَزَالُ بِهِ جَهْلُهُ حَتَّى يَدُلَّ بِعَمَلِهِ وَيَزُولَ الْخَوْفُ عَنْهُ، وَيَرَى أَنَّ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ الْمَقَامَاتِ الْعَالِيَةَ؛ فَيَصِيرُ آمِنًا مِنْ مَكْرِ اللَّهِ مُتَّكِلًا عَلَى نَفْسِهِ الضَّعِيفَةِ الْمَهِينَةِ، وَمِنْ هُنَا يُخْذَلُ وَيَحَالُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْفِيقِ؛ إِذْ هُوَ الَّذِي جَنَى عَلَى نَفْسِهِ.

وَهَذِهِ الْأُمُورُ مِنَ الْأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَمِنْ الْيَأْسِ مِنْ رَوْحِهِ، وَالْقَنُوطِ مِنْ رَحْمَتِهِ.. هَذِهِ الْأُمُورُ مُنَافِيَةٌ لِتَوْحِيدِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ

وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَتِهِ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ وَعَظَائِمِ الْإِثْمِ» (١).

قَالَ الْمُنَاوِي^(٢): «الْيَأْسُ: الْقَطْعُ بِأَنَّ الشَّيْءَ لَا يَكُونُ، وَالْيَأْسُ ضِدُّ الرَّجَاءِ».

وَقَالَ الْعِزُّ^(٣): «الْيَأْسُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ: هُوَ اسْتِصْغَارٌ لِسَعَةِ رَحْمَتِهِ ﷻ وَلِمَغْفِرَتِهِ، وَذَلِكَ ذَنْبٌ عَظِيمٌ وَتَضْيِيقٌ لِفَضَاءِ جُودِهِ».

الْيَأْسُ: انْقِطَاعُ الرَّجَاءِ (٤).

وَقَالَ الرَّاعِبُ^(٥): «هُوَ انْتِفَاءُ الطَّمَعِ».

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ^(٦): «الْقَطْعُ عَلَى أَنَّ الْمَطْلُوبَ لَا يَتَحَصَّلُ لِتَحَقُّقِ فَوَاتِهِ؛ فَهَذَا هُوَ الْيَأْسُ».

«وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ الْيَأْسَ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: الْقُنُوطُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْكٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

(١) «القول السديد شرح كتاب التوحيد» ضمن مجموع مؤلفات السعدي: (٦/٦٨٧ -

٦٨٨)، بتصرف يسير.

(٢) «التوقيف على مهمات التعاريف»: (ص ٣٤٦).

(٣) «شجرة المعارف والأحوال»: (ص ٩٩).

(٤) «الكليات» لأبي البقاء الكفوي: (ص ٩٨٥).

(٥) «المفردات في غريب القرآن»: (ص ٨٩٢).

(٦) «نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر»: (ص ٦٣٣).

وَإِنَّمَا عَبَّرَ بِالْيَأْسِ عَنِ الْقُنُوطِ؛ لِأَنَّ الْقُنُوطَ ثَمَرَةُ الْيَأْسِ.

الثَّانِي: الْيَأْسُ: الْعِلْمُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِسْ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]؛ أَي أَفَلَمْ يَعْلَمُوا؟! (١).

وَقَدْ عَدَّ ابْنُ حَجَرٍ (٢) الْيَأْسَ مِنْ رَحْمَتِهِ - تَعَالَى - مِنْ الْكِبَائِرِ؛ مُسْتَدِلًّا بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْفَوْمُ الْكٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وَبَعْدَ أَنْ ذَكَرَ عَدَدًا مِنَ الْأَحَادِيثِ الْمُبَشِّرَةِ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ ﷻ قَالَ (٣): «عَدُّ هَذَا كَبِيرَةٌ هُوَ مَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ، وَهُوَ ظَاهِرٌ لِمَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ» (٤).

فَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﷻ مِنْ كِبَائِرِ الْإِثْمِ وَمِنْ عَظَائِمِ الذُّنُوبِ.

الْقُنُوطُ: مَصْدَرٌ قَوْلِهِمْ فَنَطَ يَقْنُطُ؛ إِذَا يَتَسَّ يَأْسًا شَدِيدًا.

«قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقٰنِطِينَ﴾ [الحجر: ٥٥]؛ أَي: الْيَئِيسِينَ مِنَ الْوَلَدِ، وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ يَتَسَّ مِنَ الْوَلَدِ لِفَرَطِ الْكِبَرِ» (٥).



(١) المصدر السابق.

(٢) هو شيخ الإسلام أبو العباس ابن حجر الهيتمي، (المتوفي: ٩٧٤هـ).

(٣) «الزواجر عن اقتراف الكبائر»: الْكَبِيرَةُ الْأَرْبَعُونَ، (١/١٤٩).

(٤) «نصرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم»: (١١/٥٧٢٥).

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي: (١٠/٣٥-٣٦).

لَا تَقْنَطُوا مَهْمَا اشْتَدَّتْ بِكُمْ الْمِحْنُ!

القُنُوطُ: أَشَدُّ الْيَأْسِ، يُقَالُ: قَطَطَ يَقْنُطُ قُنُوطًا وَقَنَاطَةً^(١)، وَهُوَ انْقِطَاعُ الْأَمَلِ، وَفَقْدُ الرَّجَاءِ، وَانْتِفَاءُ الطَّمَعِ، وَهَذِهِ الْحَالُ إِذَا تَعَلَّقْتَ بِاللَّهِ ﷻ كَانَتْ مَعْصِيَةً كَبِيرَةً وَاعْتِقَادًا بَاطِلًا؛ لِأَنَّهَا تَنْمُ عَنْ سُوءِ الظَّنِّ بِاللَّهِ ﷻ، وَتُسِيرُ إِلَى نِسْبَةِ الْعَجْزِ إِلَيْهِ تَعَالَى، وَهَذَا ضَلَالٌ مُبِينٌ، لِذَلِكَ نَهَى عَنْهُ الدِّينُ، وَأَخْبَرَ الْقُرْآنُ أَنَّهُ لَا يَصْدُرُ إِلَّا مِنْ كَافِرٍ؛ قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْفَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وَرَوْحُ اللَّهِ هُنَا: رَحْمَتُهُ^(٢) الَّتِي وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، فَلَا يَجُوزُ الْوُقُوفُ مِنْهَا مَوْقِفَ الْيَأْسِ وَالْقُنُوطِ مَهْمَا اشْتَدَّتْ بِالْإِنْسَانِ الْمِحْنُ وَتَكَالَبَتْ عَلَيْهِ الرِّزَايَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ ﷻ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِ الْفَرَجِ، وَتَفْرِيجِ الْكُرْبِ، وَتَبْدِيدِ الْخُطُوبِ، وَالشَّكِّ

(١) «النهاية في غريب الحديث»: (٤/ ١١٣)، مادة: (قنط).

(٢) أخرج عبد الرزاق في «تفسيره»: (٢/ ٢٢٢)، رقم (١٣٣٧)، والطبري في «جامع البيان»: (٤٩/ ١٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره»: (٧/ ٢١٩٠)، رقم (١١٩١١)، بإسناد صحيح، عَنْ قَتَادَةَ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْتِسُّوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾، قَالَ: «مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ».

وقال الضحاك والسدي، بنحوه.

فِي ذَلِكَ مَدْعَاةٌ لِنِسْبَةِ النَّقْصِ وَالْعَجْزِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَاعْتِقَادُ ذَلِكَ بِاللَّهِ ﷻ كُفْرٌ
بِجَلَالِهِ وَكَمَالِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ.

وَلَقَدْ نَهَى اللَّهُ ﷻ عَنْ هَذَا الْيَأْسِ وَذَلِكَ الْقُنُوطِ مَهْمَا كَانَتْ الْحَالُ الَّتِي
وَصَلَ إِلَيْهَا الْعَبْدُ وَاسْتَقَرَّتْ فِيهَا الشُّدَّةُ.

قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿ قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ
إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ، وَهُوَ
الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [الشورى: ٢٨].

لَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ ﷻ أَحْوَالَ عِبَادِهِ بَلَغَ فِيهَا بَعْضُهُمْ مَبْلَغَ الْحَرَجِ، وَكَادُوا فِيهَا أَنْ
يَسْتَسْلِمُوا لِيَأْسٍ، فَجَاءَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ الْفَرَجُ، وَأَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِتَبْدِيدِ الشَّدَائِدِ
وِإِزَالَةِ الْكُرْبِ.

قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن
قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ
أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

بَعْدَ هَذَا الزَّلْزَالِ الَّذِي مَلَأَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ وَبَعْدَ تِلْكَ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ الَّتِي
رَكِبَتْهُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ؛ جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

فَأَمَّا هَذِهِ الْقُدْرَةُ الرَّبَّانِيَّةُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَتَسَرَّبَ إِلَى النُّفُوسِ الْيَأْسُ وَلَا أَنْ
يَسْتَحْكَمَ فِيهَا الْقُنُوطُ مَا دَامَتْ قُدْرَةُ اللَّهِ ﷻ أَقْوَىٰ مِنْ كُلِّ الشَّدَائِدِ وَالْمِحَنِ، وَمَا

دَامَ سُلْطَانُهُ فَوْقَ كُلِّ هَذَا الْوُجُودِ؛ ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ نَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ، مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

«يُخْبِرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَمْتَحِنَ عِبَادَهُ بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْمَشَقَّةِ، لَا بُدَّ مِنْ هَذَا الْإِمْتِحَانِ كَمَا فَعَلَ بِمَنْ قَبْلَهُمْ؛ فَهِيَ سُنَّتُهُ الْجَارِيَةُ الَّتِي لَا تَبَدُّلَ وَلَا تَتَّعِيرُ؛ أَنْ مَنْ قَامَ بِدِينِهِ وَشَرَعِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَبْتَلِيَهُ، فَإِنْ صَبَرَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ وَلَمْ يُبَالِ بِالْمَكَارِهِ الْوَاقِفَةِ فِي سَبِيلِهِ؛ فَهُوَ الصَّادِقُ الَّذِي قَدْ نَالَ مِنَ السَّعَادَةِ كَمَالَهَا، وَمِنْ السِّيَادَةِ أَلْتَهَا.

وَمَنْ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ؛ بِأَنْ صَدَّتْهُ الْمَكَارِهِ عَمَّا هُوَ بِصَدَدِهِ، وَثَنَتْهُ الْمِخْنُ عَنْ مَقْصِدِهِ؛ فَهُوَ الْكَاذِبُ فِي دَعْوَى الْإِيمَانِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّحَلِّيِّ، وَلَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّمَنِّيِّ وَمُجَرَّدِ الدَّعَاوَى حَتَّى تُصَدِّقَهُ الْأَعْمَالُ أَوْ تُكَذِّبَهُ^(١).

(١) أخرج ابن المبارك في «الزهد»: (١١ / ٤٢٥)، وابن أبي شيبة في «المصنف»: (١١ / ٢٢) و (١٣ / ٥٠٤)، وفي «الإيمان»: (ص ٣٨، رقم ٩٣)، وأحمد في «الزهد»: (ص ٢١٣، رقم ١٤٨٣)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى»: (٢ / ٨٠٥)، رقم ١٠٩٣ و ١٠٩٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان»: (١ / ١٥٨ - ١٥٩، رقم ٦٥)، والخطيب في «اقتضاء العلم العمل»: (ص ٤٢ - ٤٣، رقم ٥٦)، من طرق بعضها جيد، عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ:

«لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّحَلِّيِّ وَلَا بِالتَّمَنِّيِّ، وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ، وَصَدَّقَتْهُ الْأَعْمَالُ، مَنْ قَالَ حَسَنًا وَعَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ رَدَّهُ اللَّهُ عَلَى قَوْلِهِ، وَمَنْ قَالَ حَسَنًا وَعَمِلَ صَالِحًا رَفَعَهُ الْعَمَلُ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

فَقَدْ جَرَى عَلَى الْأُمَمِ الْأَقْدَمِينَ مَا ذَكَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ﴾؛
 أَي: الْفَقْرُ وَالْأَمْرَاضُ فِي أَسْبَابِهِمْ، ﴿وَزُلْزَلُوا﴾ بِأَنْوَاعِ الْمَخَافِ مِنْ التَّهْدِيدِ
 بِالْقَتْلِ، وَالنَّفْيِ، وَأَخَذِ الْأَمْوَالِ، وَقَتْلِ الْأَحِبَّةِ، وَأَنْوَاعِ الْمَضَارِّ حَتَّى وَصَلَتْ بِهِمْ
 الْحَالُ وَالْأَلْ بِهَيْمُ الزَّلْزَالِ إِلَى أَنْ اسْتَبَطَّنُوا نَصَرَ اللَّهِ مَعَ يَقِينِهِمْ بِهِ، وَلَكِنْ لِشِدَّةِ الْأَمْرِ
 وَضِيقِهِ قَالَ: ﴿الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصَرُ اللَّهُ﴾، فَلَمَّا كَانَ الْفَرَجُ عِنْدَ الشَّدَّةِ
 -وَكُلَّمَا ضَاقَ الْأَمْرُ اتَّسَعَ- قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّ نَصَرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

فَهَكَذَا كُلُّ مَنْ قَامَ بِالْحَقِّ فَإِنَّهُ يُمْتَحَنُ، فَكُلَّمَا اشْتَدَّتْ عَلَيْهِ وَصَعِبَتْ، إِذَا
 صَبَرَ وَثَابَرَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ انْقَلَبَتِ الْمِحْنَةُ فِي حَقِّهِ مَنَحَةً، وَالْمَشَقَّاتُ رَاحَاتٍ،
 وَأَعْقَبَهُ ذَلِكَ الْإِنْتِصَارُ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَشِفَاءُ مَا فِي قَلْبِهِ مِنَ الدَّاءِ (١).

وَهَذِهِ الْآيَةُ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمَّ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ
 جَاهِدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وَهِيَ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْمَ ﴿١﴾ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَتْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ
 لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلِيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ﴾
 [العنكبوت: ١-٣].

والأثر عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٥ / ٢٤٦) إلى عبد بن حميد أيضا، ونقل
 المناوي في «فيض القدير»: (٥ / ٣٥٦) عن الحافظ العلائي تجويد إسناده، وروي عن
 عبيد بن عمير الليثي وقتادة نحوه، وروي مرفوعا ولا يصح.

(١) انظر: «الوابل الصيب»: (ص ٦٦).

فَعِنْدَ الْإِمْتِحَانِ يُكْرَمُ الْمَرْءُ أَوْ يِهَانُ» (١).

وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ ﷻ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ كِتَابِهِ الْحَالَ الَّتِي أَدْرَكَتْ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ حَاصَرَهُمُ الْأَحْزَابُ فِي الْمَدِينَةِ، وَهُمْ عِنْدَ الْخَنْدَقِ الَّذِي حَفَرُوهُ لِلدَّفَاعِ عَنْ وُجُودِهِمْ وَحِمَايَةِ بِلَدِهِمْ مِنْ تَأَلُّبِ الْأَعْدَاءِ عَلَيْهِمْ، وَبَيَّنَّ لَوَامِعَ الْبَشْرِ وَمَسَالِكَ النَّصْرِ الَّذِي آتَاهُمُ اللَّهُ ﷻ؛ قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١٠-١١].

قَالَ اللَّهُ -تَعَالَى- فِي تَبْدِيدِ هَذِهِ الْمَخَافِيفِ وَكَسْرِ عَصَا هَذِهِ الْجُمُوعِ: ﴿فَازْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٩].

وَقَالَ -أَيْضًا- فِي هَذَا الشَّأْنِ: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغِيظِهِمْ لَمَنَ أُولُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْفِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٣١﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢٥-٢٧].

فَالزَّلْزَلَةُ وَالْإِضْطِرَابُ وَالْخَوْفُ وَبُلُوغُ الرُّعْبِ وَالشَّدَّةُ قُلُوبَ الْعِبَادِ جَائِزٌ عَلَى الْعِبَادِ، أَمَّا الْيَأْسُ وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَمِنْ إِدْرَاكِ عِبَادِهِ بِالْفَرَجِ فَحَرَامٌ غَيْرُ جَائِزٍ؛ لِأَنَّ حَالَ الْعَبْدِ غَيْرُ حَالِ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا؛ فَمَا يَعْجِزُ عَنْهُ الْعِبَادُ لَا يَعْجِزُ عَنْهُ خَالِقُهُمْ، وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَهُوَ الْقَادِرُ الْقَدِيرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

(١) «تيسير الكريم الرحمن»: (ص ٩٦).

قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ
نَصْرًا فَنَجَّى مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ثُمَّ نَجَّى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ
الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].



تُوبُوا وَأَنْبِئُوا وَأَسْلِمُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ!

إِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا قَدْ أَمَرَ عِبَادَهُ بِأَلَّا يَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَتِهِ، عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمَلُوا فِي رَوْحِ اللَّهِ، وَأَلَّا يَتَأَسُّوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَا مِنْ وَسِيعِ رَحْمَتِهِ.

﴿قُلْ يَتَعْبَدُونَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

«يُخْبِرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الْمُسْرِفِينَ بِسَعَةِ كَرَمِهِ، وَيَحُثُّهُمْ عَلَى الْإِنَابَةِ قَبْلَ أَلَّا يُمَكِّنَهُمْ ذَلِكَ؛ فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ﴾ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ وَمَنْ قَامَ مَقَامَهُ مِنَ الدُّعَاةِ إِلَىٰ دِينِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا مُخْبِرًا لِلْعِبَادِ عَنْ رَبِّهِمْ: ﴿يَتَعْبَدُونَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ بِاتِّبَاعِ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ أَنْفُسُهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ وَالسَّعْيِ فِي مَسَاخِطِ عِلَامِ الْغُيُوبِ، ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾: لَا تَتَأَسُّوا مِنْهَا فَتُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَتَقُولُوا: قَدْ كَثُرَتْ ذُنُوبُنَا وَتَرَاكَمَتْ عُيُوبُنَا، فَلَيْسَ لَهَا طَرِيقٌ يُزِيلُهَا وَلَا سَبِيلٌ يَصْرِفُهَا، فَتَبْقُونَ بِسَبَبِ ذَلِكَ مُصْرَبِينَ عَلَى الْعِضْيَانِ، مُتَزَوِّدِينَ مَا يُغْضِبُ عَلَيْكُمْ الرَّحْمَنَ، وَلَكِنْ اعْرِفُوا رَبَّكُمْ بِأَسْمَائِهِ الدَّالَّةِ عَلَى كَرَمِهِ وَجُودِهِ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا مِنَ الشَّرْكِ وَالْقَتْلِ وَالزِّنَا وَالرِّبَا وَالظُّلْمِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الذُّنُوبِ الْكِبَارِ وَالصَّغَارِ.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾؛ أَي: وَصْفُهُ الْمَغْفِرَةُ وَالرَّحْمَةُ وَصِفَانِ لِأَزْمَانِ
ذَاتِيَانِ لَا تَنْفَكُ ذَاتُهُ عَنْهُمَا أَبَدًا، وَلَمْ تَزَلْ آثَارُهُمَا سَارِيَةً فِي الْوُجُودِ، مَالِيَةً
لِلْمَوْجُودِ، تَسُحُّ يَدَاهُ مِنَ الْخَيْرَاتِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَيُوَالِي النِّعَمَ عَلَى
الْعِبَادِ وَالْفَوَاضِلَ فِي السَّرِّ وَالْجَهَارِ، وَالْعَطَاءُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْمَنْعِ، وَالرَّحْمَةُ
سَبَقَتْ الْغَضَبَ وَعَلَبَتْهُ.

وَلَكِنْ لِمَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَنَيْلِهِمَا أَسْبَابٌ؛ إِنْ لَمْ يَأْتِ بِهَا الْعَبْدُ فَقَدْ أَغْلَقَ
عَلَى نَفْسِهِ بَابَ الرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ، أَعْظَمَهَا وَأَجَلَّهَا - بَلْ لَا سَبَبَ لَهَا غَيْرُهُ -
الْإِنَابَةُ إِلَى اللَّهِ بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ، وَالِدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ، وَالتَّأَلُّهِ وَالتَّعَبُّدِ، فَهَلُمَّ إِلَى
هَذَا السَّبَبِ الْأَجَلِّ وَالطَّرِيقِ الْأَعْظَمِ!

وَلِهَذَا أَمَرَ - تَعَالَى - بِالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَالْمُبَادَرَةِ إِلَيْهِ؛ فَقَالَ: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾
بِقُلُوبِكُمْ، ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ بِجَوَارِحِكُمْ، إِذَا أُفْرِدَتِ الْإِنَابَةُ دَخَلَتْ فِيهَا أَعْمَالُ
الْجَوَارِحِ، وَإِذَا جُمِعَ بَيْنَهُمَا - كَمَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ - كَانَ الْمَعْنَى كَمَا مَرَّ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ دَلِيلٌ عَلَى الْإِخْلَاصِ، وَأَنَّهُ مِنْ دُونِ
إِخْلَاصٍ لَا تُفِيدُ الْأَعْمَالَ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ شَيْئًا، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾
مَجِيئًا لَا يُدْفَعُ، ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤]، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: مَا هِيَ الْإِنَابَةُ
وَالْإِسْلَامُ؟ وَمَا جُزْئِيَّاتُهَا وَأَعْمَالُهَا؟

فَأَجَابَ - تَعَالَى - بِقَوْلِهِ: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾
[الزمر: ٥٥]، مِمَّا أَمَرَكُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ؛ كَمَحَبَّةِ اللَّهِ وَخَشْيَتِهِ، وَخَوْفِهِ

وَرَجَائِهِ، وَالنُّصْحَ لِعِبَادِهِ، وَمَحَبَّةَ الْخَيْرِ لَهُمْ، وَتَرَكَ مَا يُضَادُّ ذَلِكَ، وَمِنْ
 الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ؛ كَالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ وَالصَّدَقَةِ وَأَنْوَاعِ
 الْإِحْسَانِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَهُوَ أَحْسَنُ مَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّنَا،
 فَالْمُتَّبِعُ لِأَمْرِ رَبِّهِ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ وَنَحْوِهَا هُوَ الْمُنِيبُ الْمُسْلِمُ، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ
 يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَعْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٥].

وَكُلُّ هَذَا حَثٌّ عَلَى الْمُبَادَرَةِ وَانْتِهَازِ الْفُرْصَةِ^(١). (*)

وَإِذَنْ؛ فَيَبْغِي عَلَيْنَا أَنْ نَعُودَ إِلَى الْأَصْلِ؛ أَنْ تَتُوبَ.

وَالتَّوْبَةُ أَوْبَةٌ، وَالتَّوْبَةُ رَجْعَةٌ وَعَوْدَةٌ:

* وَشَرَطَهَا الْأَوَّلُ: أَنْ تَكُونَ التَّوْبَةُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَأَيْنُ التَّائِبِينَ.. أَيْنُ الْمُخْطِئِينَ.. أَيْنُ الْمُجْتَرِحِينَ لِلْسَيِّئَاتِ وَالذُّنُوبِ
 أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مِنْ زَجَلِ الْمُسْبِحِينَ فِي أَجْوَابِ اللَّيَالِي.

اللَّهُمَّ ارزُقْنَا أَعْيُنًا بَاكِيَةً مِنْ جَلَالِ خَشِيَّتِكَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

* الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَالْإِقْلَاعُ الْفُورِيُّ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الذُّنُوبِ

الْمُلَوَّنَاتِ.

(١) «تيسير الكريم الرحمن»: (ص ٧٢٧).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصِرٌ مِنْ خُطْبَةٍ: «الْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ» - الْجُمُعَةُ ٢٧ مِنْ صَفَرٍ

* الإِقْلَاعُ عَنِ الذَّنْبِ، وَالنَّدَمُ، وَالْعَزْمُ بِالْجَزْمِ عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ الْمَرْءُ إِلَى ذَلِكَ أَبَدًا.

وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «النَّدَمُ تَوْبَةٌ» (١).

* وَأَنْ تَقَعَ التَّوْبَةُ فِي وَقْتِهَا الْمَضْرُوبِ.

فَأَمَّا عَلَى الْمُسْتَوَى الْإِنْسَانِيَّ فَقَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ الرُّوحَ الْحُلُقُومَ.

وَأَنْتَ هَاهُنَا لَمْ تَبْلُغِ رُوحَكَ حُلُقُومَهَا، وَلَمْ تَصِلْ بَعْدُ إِلَى ذِرْوَتِهَا، فَبَابُ التَّوْبَةِ مَا زَالَ مَفْتُوحًا.

وَأَمَّا فِي عُمُومِ الْجِنْسِ الْإِنْسَانِيِّ؛ فَحَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَقَبْلَ ذَلِكَ الْبَابُ مَفْتُوحٌ، وَالْأَمْرُ مِنَ الرَّبِّ نَازِلٌ بِخَيْرٍ، وَلَا يَنْزِلُ مِنْهُ إِلَّا الْخَيْرُ. (*)



(١) أخرجه ابن ماجه في «السنن»: ١٤٢٠/٢، رقم (٤٢٥٢)، من حديث: ابن مسعود

رضي عنه.

والحديث صححه الألباني في «صحيح الجامع»: ١١٥٠/٢، رقم (٦٨٠٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصِرٌ مِنْ خُطْبَةٍ: «أَنِيبُ التَّائِبِينَ» - الْجُمُعَةَ ٢٥ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٢٦ هـ |

حُكْمُ الْقُنُوطِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ

«قَالَ ابْنُ حَجْرٍ^(١): «سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ - تَعَالَى - وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَتِهِ مِنَ الْكِبَائِرِ». وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا فِي الْقُنُوطِ: «وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ» [الحجر: ٥٦].

وَقَالَ^(٢): «عَدُّ سُوءِ الظَّنِّ وَالْقُنُوطِ كَبِيرَتَيْنِ مُغَايِرَتَيْنِ لِلْيَأْسِ هُوَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْجَلَالُ الْبُلْقِينِيُّ وَغَيْرُهُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْقُنُوطَ أَبْلَغُ مِنَ الْيَأْسِ، لِلتَّرَقُّيِّ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَقُوسْ قُنُوطًا» [فصلت: ٤٩].

وَقَدْ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ الشَّخْصَ الَّذِي يَتَّسِقُ مِنْ وَقُوعِ شَيْءٍ مِنَ الرَّحْمَةِ لَهُ مَعَ إِسْلَامِهِ؛ فَالْيَأْسُ فِي حَقِّهِ كَبِيرَةٌ اتَّفَاقًا، ثُمَّ هَذَا الْيَأْسُ قَدْ يَنْضَمُّ إِلَيْهِ حَالَةٌ هِيَ أَشَدُّ مِنْهُ، وَهِيَ التَّصْمِيمُ عَلَى عَدَمِ وَقُوعِ الرَّحْمَةِ لَهُ وَهُوَ الْقُنُوطُ، ثُمَّ قَدْ يَنْضَمُّ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ يُشَدِّدُ عِقَابَهُ لَهُ كَالْكَفَّارِ، وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِسُوءِ الظَّنِّ هُنَا»^(٣).

(١) «الزواجر»: الكبيرة الحادية والثانية والأربعون، (١ / ١٥٠ - ١٥١).

(٢) المصدر السابق، بتصرف واختصار يسير.

(٣) «نصرة النعيم»: (١١ / ٥٣٤٤ - ٥٣٤٥)، باختصار وتصرف يسير.

«عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنِ الْكِبَائِرِ؛ فَقَالَ: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ».

أَخْرَجَهُ الْبَزَارُ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ^(١) مِنْ طَرِيقِ شَيْبِ بْنِ بَشْرٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ إِلَّا شَيْبَةَ بْنَ بَشْرٍ؛ فَقَالَ ابْنُ مَعِينٍ ^(٢): «ثِقَةٌ»، وَلَيْتَهُ أَبُو حَاتِمٍ ^(٣)، وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ ^(٤): «فِي إِسْنَادِهِ نَظَرٌ، وَالْأَشْبَهُ أَنْ يَكُونَ مَوْقُوفًا عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا» ^(٥).

(١) أخرجه البزار كما في الزوائد على «المسند»: (٧١ / ١)، رقم (١٠٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره»: (٩٣١ / ٣)، رقم (٥٢٠١)، وأخرجه أيضا البرديجي في جزء «الكبائر»: (ص ١٤٢، رقم ٢)، من طريق: شَيْبِ بْنِ بَشْرٍ، بإسناده...، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مُتَكِنًا فَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ: مَا الْكِبَائِرُ؟ فذكره مرفوعا. والحدِيث حسن إسناده الألباني في «الصحيحة»: (٧٩-٨٠، رقم ٢٠٥١).

(٢) «تاريخ ابن معين» رواية عباس الدوري: (٨٥ / ٤)، رقم (٣٢٦٥).

(٣) «الجرح والتعديل»: (٣٥٧ / ٤)، ترجمة رقم (١٥٦٤).

(٤) «تفسير القرآن العظيم»: (٢٧٩ / ٢).

(٥) فأخرج الطبري في «جامع البيان»: (٢٢٠ / ٥) مختصرا، وابن المنذر في «تفسيره»:

(٢ / ٦٧١-٦٧٢، رقم ١٦٧١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره»: (٥٧١ / ٢)، رقم (٣٠٥١)

مختصرا، والطبري في «المعجم الكبير»: (١٢ / ٢٥٢-٢٥٣، رقم ١٣٠٢٣)، بإسناد

صحيح، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَيْدَ الْإِنَّمِ﴾ [النجم: ٣٢]، قَالَ:

«فَأَكْبَرُ الْكِبَائِرِ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾

[المائدة: ٧٢]، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ

الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]،...» فذكره موقوفا.

قَوْلُهُ: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ»: هُوَ أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ.

قَالَ الْإِمَامُ الْعَلَامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ (١): «الشُّرْكُ بِاللَّهِ هَضْمٌ لِلرُّبُوبِيَّةِ، وَتَنْقِصٌ لِلْإِلَهِيَّةِ، وَسَوْءٌ ظَنَّ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ». وَلَقَدْ صَدَقَ وَنَصَحَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وَلِهَذَا لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ مِنْهُ.

وَقَوْلُهُ: «وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ»؛ أَي: قَطْعُ الرَّجَاءِ وَالْأَمَلِ مِنَ اللَّهِ فِيمَا يَخَافُهُ وَيَرْجُوهُ، وَذَلِكَ إِسَاءَةٌ ظَنَّ بِاللَّهِ جَلًّا وَعَلَا، وَجَهْلٌ بِهِ وَبِسَعَةِ رَحْمَتِهِ وَجُودِهِ وَمَعْفَرَتِهِ.

وَقَوْلُهُ: «وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ»؛ أَي: مِنْ اسْتِدْرَاجِهِ لِلْعَبْدِ وَسَلْبِهِ مَا أَعْطَاهُ مِنَ الْإِيمَانِ - نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ -، وَذَلِكَ جَهْلٌ بِاللَّهِ وَبِقُدْرَتِهِ، وَثِقَةٌ بِالنَّفْسِ وَعُجْبٌ بِهَا.

وَهَذَا الْحَدِيثُ لَمْ يُرِدْ بِهِ حَصْرَ الْكِبَائِرِ فِي الثَّلَاثِ الْمَذْكُورَةِ؛ بَلِ الْكِبَائِرُ كَثِيرَةٌ، وَهَذِهِ الثَّلَاثُ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

(١) «إغاثة اللفهان»: (ص ١٠١).

وَضَابِطُهَا مَا قَالَهُ الْمُحَقِّقُونَ مِنَ الْعُلَمَاءِ: «كُلُّ ذَنْبٍ خَتَمَهُ اللَّهُ بِنَارٍ أَوْ لَعْنَةٍ أَوْ غَضَبٍ أَوْ عَذَابٍ»^(١).

وَزَادَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ^(٢): «أَوْ نَفْيِ الْإِيمَانِ، وَمَنْ بَرِيَ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْ قَالَ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ فَعَلَ كَذَا»؛ فَهَذِهِ كُلُّهَا مِنَ الْكَبَائِرِ».

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «هِيَ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ أَقْرَبُ إِلَى سَبْعٍ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا كَبِيرَةٌ مَعَ الْإِسْتِغْفَارِ، وَلَا صَغِيرَةٌ مَعَ الْإِصْرَارِ»^(٣).

(١) أخرج الطبري في «جامع البيان»: (٥ / ٤١)، والبيهقي في «شعب الإيمان»: (١ / ٤٦٠ - ٤٦١، رقم ٢٨٦)، بإسناد صحيح، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: ٣١]، قال:

«الْكَبَائِرُ كُلُّ ذَنْبٍ خَتَمَهُ اللَّهُ بِنَارٍ، أَوْ غَضَبٍ، أَوْ عَذَابٍ، أَوْ لَعْنَةٍ».

وقال الضحاك: «الْكَبَائِرُ: كُلُّ مُوجِبَةٍ أَوْجَبَ اللَّهُ لِأَهْلِهَا النَّارَ، وَكُلُّ عَمَلٍ يُقَامُ بِهِ الْحَدُّ فَهُوَ مِنَ الْكَبَائِرِ»، وقال سعيد بن جبير الحسن ومجاهد نحوه.

(٢) «مجموع الفتاوى»: (١١ / ٦٥٠-٦٥٧).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» جامع معمر: (١٠ / ٤٦٠، رقم ١٩٧٠٢)، وفي «التفسير»: (١ / ٤٤٧، رقم ٥٥٥)، والطبري في «جامع البيان»: (٥ / ٤١)، وابن المنذر في «تفسيره»: (٢ / ٦٧١، رقم ١٦٦٩ و ١٦٧٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره»: (٣ / ٩٣٤)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد»: (٦ / ١١٠٩ و ١١١٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان»: (١ / ٤٦٣، رقم ٢٩٠)، بإسناد صحيح: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ: كَمْ الْكَبَائِرُ؟ سَبْعًا هِيَ؟ قَالَ:

«هِيَ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ أَقْرَبُ مِنْهَا إِلَى سَبْعٍ، وَأَنَّهَا لَا كَبِيرَةٌ مَعَ اسْتِغْفَارٍ وَلَا صَغِيرَةٌ مَعَ إِصْرَارٍ».

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: «أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ، وَالْقَنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ»^(١). رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَالطَّبْرِيُّ فِي «جَامِعِ الْبَيَانِ»، وَالطَّبْرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ»، وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ مَوْقُوفٌ عَلَيْهِ رضي الله عنه^(٢).

إِلَّا أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ يُؤَدِّيَ بِنَا الْخَوْفِ إِلَى الْقَنُوطِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، مَعَ أَنَّ الْخَوْفَ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ مَنَازِلِ السَّائِرِينَ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ.

قَالَ الْإِمَامُ الْعَلَامَةُ ابْنُ الْقَيْمِ رحمته الله^(٣): «مَنْزِلَةُ الْخَوْفِ مِنْ مَنَازِلِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وَهِيَ مِنْ أَجْلِ الْمَنَازِلِ وَأَنْفَعَهَا لِلْقَلْبِ، وَالْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ فَرَضٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ؛ قَالَ اللَّهُ عز وجل: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٤١].

وفي رواية: «هِيَ إِلَى السَّبْعِينَ أَقْرَبُ»، وَرُويَ عَنِ أَبِي الْعَالِيَةِ نَحْوُ ذَلِكَ.

(١) أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «الْمَصْنُفِ» جَامِعِ مَعْمَرٍ: (٤٥٩/١٠)، رَقْم (١٩٧٠١)، وَفِي «التفسير»: (٤٤٨/١)، رَقْم (٥٥٦)، وَالطَّبْرِيُّ فِي «جَامِعِ الْبَيَانِ»: (٤٠/٥)، وَابْنُ الْمُنْذَرِ فِي «تفسيره»: (٦٦٧/٢)، رَقْم (١٦٦١)، وَالطَّبْرَانِيُّ فِي «المعجم الكبير»: (١٧١/٩)، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

(٢) «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد»: (ص ٣٦٠-٣٦١).

(٣) «مدارج السالكين»: (١/٥٠٧-٥١٠)، بِتَصْرِيفٍ يَسِيرٍ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وَمَدَحَ أَهْلَ الْخَوْفِ فِي كِتَابِهِ وَأَثْنَى عَلَيْهِمْ؛ فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

فِي «الْمُسْنَدِ» وَعِنْدَ التِّرْمِذِيِّ^(١) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾؛ أَهْوَىٰ الَّذِي يَزْنِي وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُ!!؟

قَالَ: «لَا يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ! وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ، وَيَخَافُ أَلَّا يُقْبَلَ مِنْهُ». وَهَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

وَالْخَوْفُ لَيْسَ مَقْصُودًا لِدَاتِهِ؛ بَلْ هُوَ مَقْصُودٌ لِغَيْرِهِ قَصْدَ الْوَسَائِلِ، وَلِهَذَا يَزُولُ بِزَوَالِ الْمَخُوفِ؛ فَإِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.

الْخَوْفُ يَتَعَلَّقُ بِالْأَفْعَالِ، وَالْمَحَبَّةُ تَتَعَلَّقُ بِالذَّاتِ وَالصِّفَاتِ؛ وَلِهَذَا تَتَضَاعَفُ مَحَبَّةُ الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ إِذَا دَخَلُوا دَارَ النَّعِيمِ، وَلَا يَلْحَقُهُمْ فِيهَا خَوْفٌ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ مَنَزِلَةُ الْمَحَبَّةِ وَمَقَامُهَا أَعْلَىٰ وَأَرْفَعُ مِنْ مَنَزِلَةِ الْخَوْفِ وَمَقَامِهِ.

(١) «المسند»: (٦/ ١٥٩ و ٢٠٥)، و«جامع الترمذي»: (٥/ ٣٢٧ - ٣٢٨، رقم ٣١٧٥)،

وأخرجه أيضا: ابن ماجه: (٢/ ١٤٠٤، رقم ٤١٩٨).

والحديث صححه الألباني في «الصحيحه»: (١/ ١٦٢، رقم ٣٠٤).

وَالْخَوْفُ الْمَحْمُودُ الصَّادِقُ مَا حَالَ بَيْنَ صَاحِبِهِ وَبَيْنَ مَحَارِمِ اللَّهِ ﷻ، فَإِذَا تَجَاوَزَ ذَلِكَ خِيفَ مِنْهُ الْيَأْسُ وَالْقُنُوطُ.

قَالَ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ -قَدَسَ اللَّهُ رُوحَهُ- يَقُولُ^(١): «الْخَوْفُ الْمَحْمُودُ مَا حَجَزَكَ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ».

فَاعْلَمْ -أَيُّهَا الْأَخُ الْحَبِيبُ- أَنَّ الْخَوْفَ وَاجِبٌ، يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَخَافَ مِنَ اللَّهِ، وَالْخَوْفُ الْمَحْمُودُ الصَّادِقُ مَا حَجَزَكَ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، إِنْ لَمْ تَأْتِ بِهِذَا الْخَوْفِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ عُوقِبْتَ؛ لِأَنَّكَ لَمْ تَأْتِ بِوَاجِبٍ أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ وَفَرَطْتَ فِي حَقِّ أَحَقِّهِ اللَّهُ عَلَيْكَ.

وَاعْلَمْ -أَيُّهَا الْأَخُ الْحَبِيبُ- أَنَّ الْيَأْسَ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ وَأَنَّ الْقُنُوطَ مِنْ رَحْمَتِهِ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ وَمِنْ عَظَائِمِ الْإِثْمِ، فَإِنْ تَوَرَّطْتَ فِي ذَلِكَ تَوَرَّطْتَ فِي كَبِيرَةٍ مِنْ كَبَائِرِ الْإِثْمِ وَعَظِيمَةٍ مِنْ عَظَائِمِ الذُّنُوبِ. (*).



(١) «مدارج السالكين»: (١/ ٥١١).

(*): مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ خُطْبَةٍ: «الْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ» - الْجُمُعَةُ ٢٧ مِنْ صَفَرِ

اللَّهُ عَفُوٌّ يُحِبُّ الْعَفْوَ مِنْ عِبَادِهِ

إِنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ يُحِبُّ الْعَفْوَ مِنْ عِبَادِهِ؛ فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ يُحِبُّ الْعَفْوَ، ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]»^(١). قِطْعَةٌ مِنْ حَدِيثٍ رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَحَسَنَةٌ بِشَوَاهِدِهِ الْأَلْبَانِيِّ كَمَا فِي «السَّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ».

قَالَ ﷺ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، يَجْزِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا وَثَوَابًا كَثِيرًا.

وَشَرَطَ اللَّهُ فِي الْعَفْوِ الْإِصْلَاحَ فِيهِ؛ لِيُدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ إِذَا كَانَ الْجَانِي لَا يَلِيقُ بِالْعَفْوِ عَنْهُ، وَكَانَتِ الْمَصْلَحَةُ الشَّرْعِيَّةُ تَقْتَضِي عُقُوبَتَهُ؛ فَإِنَّهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ لَا يَكُونُ الْعَفْوُ مَأْمُورًا بِهِ.

(١) أخرجه أحمد: (١/ ٨ و ٤١٩)، وأبو يعلى في «المسند»: (٩/ ٨٧-٨٨، رقم ٥١٥٥)، والطبراني في «المعجم الكبير»: (٩/ ١١٤-١١٥، رقم ٨٥٧٢)، والحاكم: (٤/ ٣٨٣، رقم ٨١٥٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى»: (٨/ ٣٣٢).
والحديث حسنه الألباني في «الصحيحة»: (٤/ ١٨١-١٨٢، رقم ١٦٣٨).

إِذَا لَمْ يُثْمِرِ الْعَفْوُ إِصْلَاحًا فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ مَأْمُورًا بِهِ، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾؛ فَكَانَ عَفْوُهُ مَدْعَاةً لِلْإِصْلَاحِ، أَمَّا إِذَا عَفَوْنَا فَلَمْ يَزِدِدِ الْقَوْمَ إِلَّا طُغْيَانًا فَهَذَا عَفْوٌ غَيْرُ مَأْمُورٍ بِهِ، إِنَّمَا الْعَفْوُ الْمَأْمُورُ بِهِ مَا أَنْتَجَ فَأَتَمَّرَ إِصْلَاحًا.

وَفِي جَعَلِ أَجْرَ الْعَافِي عَلَى اللَّهِ مَا يُهَيِّجُ عَلَى الْعَفْوِ، وَأَنْ يُعَامِلَ الْعَبْدُ الْخَلْقَ بِمَا يُحِبُّ أَنْ يُعَامِلَهُ اللَّهُ بِهِ، كَمَا يُحِبُّ أَنْ يَعْفُوَ اللَّهُ عَنْهُ فَلْيَعْفُ عَنْهُمْ، وَكَمَا يُحِبُّ أَنْ يُسَامِحَهُ اللَّهُ فَلْيُسَامِحْهُمْ؛ فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ.

مَنْ وَصَلَ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ فَلْيُحْمَدِ اللَّهَ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الْكُبْرَى وَالْمِنَّةِ الْمُثْلَى، وَعَلَى رَاحَةِ الضَّمِيرِ، وَعَلَى كَثْرَةِ مَا يَجْنِي مِنَ الْخَيْرِ، وَعَلَى مَا يُرْجَى لَهُ مِنْ جَزَاءِ رَبِّهِ لَهُ وَمُعَامَلَتِهِ بِهِ، وَأَنَّهُ يُرْجَى أَنْ يُكَمِّلَ اللَّهُ لَهُ النَّاقِصَ وَيَعْفُوَ عَمَّا مَزَجَ فِيهِ الْعَبْدُ أَعْرَاضَهُ وَشَهَوَاتِهِ النَّفْسِيَّةَ مَعَ دَوَاعِي الْإِخْلَاصِ.

وَيُسْتَشْنَى مِنْ هَذَا الْأَصْلِ الْعَفْوُ عَنِ الْمُجْرِمِ الْمُفْسِدِ الْمُتَمَرِّدِ الَّذِي الْعَفْوُ عَنْهُ مِمَّا يَزِيدُهُ فِي عِتْوِهِ وَتَمَرُّدِهِ، فَالْوَاجِبُ فِي مِثْلِ هَذَا الرَّدُّعِ وَالزَّجْرُ بِكُلِّ مُمَكِّنٍ، وَلَعَلَّ هَذَا يُؤْخَذُ مِنَ الْقَيْدِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾، فَشَرَطَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ الْعَفْوُ فِيهِ صِلَاحًا، فَأَمَّا الْعَفْوُ الَّذِي لَا صِلَاحَ فِيهِ بَلْ فِيهِ ضِدُّهُ فَهُوَ مَنْهِيٌّ عَنْهُ.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَمْ نَعْفُو عَنِ الْخَادِمِ؟ فَصَمَّتْ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِ الْكَلَامَ، فَصَمَّتْ، فَلَمَّا

كَانَ فِي الثَّالِثَةِ قَالَ: «اعْفُ عَنْهُ - يَعْنِي الْخَادِمَ - فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً» (١). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ (*).

قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا أَلْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَكْتُوبٌ فِي الْإِنْجِيلِ: لَا فَظٌ، وَلَا غَلِيظٌ، وَلَا صَخَّابٌ بِالْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ مِثْلَهَا، بَلْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ» (٣). أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ، وَابْنُ عَسَاكِرَ، وَحَسَنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «السَّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ».

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: (٤/٣٤١، رَقْم ٥١٦٤)، وَالتِّرْمِذِيُّ: (٤/٣٣٦، رَقْم ١٩٤٩).
وَالْحَدِيثُ صَحِيحٌ إِسْنَادُهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «الصَّحِيحَةِ»: (١/٨٨٠-٨٨١، رَقْم ٤٨٨).
(* مَا مَرَّ ذِكْرُهُ - بِإِخْتِصَارٍ بَسِيرٍ - مِنْ سِلْسِلَةِ: «مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى» (الْمُحَاضِرَةُ التَّاسِعَةُ) - الْأَرْبَعَاءُ ١٦ مِنْ رَجَبٍ ١٤٣٣ هـ | ٦-٦-٢٠١٢ م.
(٣) أَخْرَجَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي «السِّيَرَةِ»: ص ١٤٢، وَابْنُ سَعْدٍ فِي «الطَّبَقَاتِ الْكُبْرَى»: ٣٦٣/١، وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوِيَةَ فِي «الْمَسْنَدِ»: ٣/٩١٩، رَقْم (١٦١٠ و ١٦١١)، وَالْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ»: ٢/٦١٤، رَقْم (٤٢٢٤)، وَالبَيْهَقِيُّ فِي «الدَّلَائِلِ»: ١/٣٧٧-٣٧٨، وَابْنُ عَسَاكِرَ فِي «تَارِيخِ دِمَشْقَ»: ٣/٣٨٨.

وَالْحَدِيثُ حَسَنٌ الْأَلْبَانِيُّ فِي «الصَّحِيحَةِ»: (٥/٥٨٦-٥٨٨، رَقْم ٢٤٥٨).
وَالْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الصَّحِيحِ»: (٤/٣٤٢-٣٤٣، رَقْم (٢١٢٥)، و ٥٨٥، رَقْم (٤٨٣٨)، مِنْ طَرِيقِ: عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍوَ بْنَ الْعَاصِ، قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَةِ؟ قَالَ: أَجَلٌ، وَاللَّهُ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا» (١).

فِي الصَّفْحِ وَالْعَفْوِ وَالْحِلْمِ مِنَ الْحَلَاوَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ وَالسَّكِينَةِ، وَشَرَفِ
النَّفْسِ، وَعِزِّهَا وَرَفْعَتِهَا عَنْ تَشْفِيهَا بِالْإِنْتِقَامِ مَا لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهُ فِي الْمُقَابَلَةِ
وَالْإِنْتِقَامِ. (*)

وَقَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف:

. [١٩٩]

فَإِحْسَانُ التَّعَامُلِ مَعَ الْخَلْقِ هُوَ امْتِثَالٌ لِأَمْرِ الرَّبِّ، وَامْتِثَالٌ لِأَمْرِ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ
ﷺ: «وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقِ حَسَنٍ» (٣).

[الأحزاب: ٤٥]، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتِكَ الْمَتَوَكَّلَ لَيْسَ بِفِظٍّ وَلَا
غَلِيظٍ، وَلَا سَخَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ، وَلَنْ
يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بَأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمِيًّا،
وَأَذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا».

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (رَقْم ٢٥٨٨)، مِنْ حَدِيثِ: أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ
ﷺ، قَالَ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ
لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ».

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «التَّسَامُحُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ» - الْجُمُعَةُ ١١ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ
١٤٣٨ هـ | ١٠-٣-٢٠١٧ م.

(٣) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «الْجَامِعِ» (رَقْم ١٩٨٧)، مِنْ حَدِيثِ: أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ
ﷺ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقِ حَسَنٍ»،
وَحَسَنُهُ لغيره الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣/ رقم ٢٦٥٥).

«خَالِقِ النَّاسِ»: مِنَ الْمُفَاعَلَةِ بَيْنَكَ وَبَيْنَ النَّاسِ؛ يَعْنِي: فَلَتَكُنْ أَخْلَاقُكَ الْمَبْدُولَةُ إِلَيْهِمْ حَسَنَةً.

«خَالِقِ النَّاسِ»: فَهُوَ فِعْلٌ أَمْرٍ، «وَخَالِقِ النَّاسِ بِخُلُقِ حَسَنِ».

فَهُوَ امْتِثَالٌ لِأَمْرِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَامْتِثَالٌ لِأَمْرِ النَّبِيِّ الْأَمِينِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَيَجْعَلُهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُؤَدِّيًّا إِلَى مَبْلَغٍ لَا يُرْتَقَى مُرْتَقَاهُ إِلَّا بِشِقِّ النَّفْسِ وَبَدَلِ الْمَجْهُودِ؛ «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَبْلُغُ بِحُسْنِ الْخُلُقِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ» (١). (*)

* الْإِسْلَامُ دِينُ الْعَفْوِ وَالتَّسَامُحِ؛ فَقَدْ قَالَ السَّعْدِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣): قَالَ

جَلَّ وَعَلَا: ❖ ❖ وَسَارِعُوا إِلَى مَعْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْعَظِيمِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ❖ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

(١) أخرجه أبو داود في «السنن» (رقم ٤٧٩٨)، من حديث: عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣/ رقم ٢٦٤٣).

والحديث رُوِيَ نحوه -أيضاً- عن علي بن أبي طالب وأبي هريرة وابن عمر وأبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مَقْطَعٍ بِعُنْوَانٍ: «حُسْنُ الْخُلُقِ وَخُطُورَةُ الْكَلِمَةِ - مِنْ سِلْسِلَةِ الْقَوْلِ الْمُبِينِ».

(٣) «تيسير الكريم الرحمن»: ص ١٤٨.

أَمَرَهُمُ اللَّهُ -تَعَالَى- بِالْمُسَارَعَةِ إِلَى مَغْفِرَتِهِ، وَإِدْرَاكِ جَنَّتِهِ الَّتِي عَرَضَهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، فَكَيْفَ بِطُولِهَا، الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ -تَعَالَى- لِلْمُتَّقِينَ، فَهُمْ أَهْلِهَا، وَأَعْمَالُ التَّقْوَى هِيَ الْمَوْصِلَةُ إِلَيْهَا.

ثُمَّ وَصَفَ الْمُتَّقِينَ وَأَعْمَالَهُمْ؛ فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾؛ أَي: فِي حَالِ عُسْرِهِمْ وَيُسْرِهِمْ، إِنْ أَيْسَرُوا أَكْثَرُوا مِنَ النَّفَقَةِ، وَإِنْ أَعْسَرُوا لَمْ يَحْتَقِرُوا مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ قَلَّ.

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾؛ أَي: إِذَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ أَدِيَّةٌ تُوجِبُ غَيْظَهُمْ -وَهُوَ امْتِلَاءُ قُلُوبِهِمْ مِنَ الْحَقِّ الْمَوْجِبِ لِلِانْتِقَامِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ-، هَؤُلَاءِ لَا يَعْمَلُونَ بِمُقْتَضَى الطَّبَاعِ الْبَشَرِيَّةِ، بَلْ يَكْظِمُونَ مَا فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْغَيْظِ، وَيَضْبِرُونَ عَنْ مُقَابَلَةِ الْمُسِيءِ إِلَيْهِمْ.

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾: يَدْخُلُ فِي الْعَفْوِ عَنِ النَّاسِ الْعَفْوُ عَنْ كُلِّ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ.

وَالْعَفْوُ أَبْلَغُ مِنَ الْكَظْمِ؛ لِأَنَّ الْعَفْوَ تَرَكَ الْمُؤَاخَذَةَ مَعَ السَّمَاخَةِ عَنِ الْمُسِيءِ. وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ مِمَّنْ تَحَلَّى بِالْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ، وَتَخَلَّى مِنَ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ.

وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ مِمَّنْ تَاجَرَ مَعَ اللَّهِ، وَعَافَا عَنْ عِبَادِ اللَّهِ؛ رَحْمَةً بِهِمْ، وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ، وَكَرَاهَةً لِحُصُولِ الشَّرِّ عَلَيْهِمْ، وَلِيَعْفُوَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلِيَكُونَ أَجْرُهُ عَلَى رَبِّهِ الْكَرِيمِ، لَا عَلَى الْعَبْدِ الْفَقِيرِ؛ كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

ثُمَّ ذَكَرَ حَالَةَ أَعْمَمٍ مِنْ غَيْرِهَا، وَأَحْسَنَ، وَأَعْلَى، وَأَجَلَّ؛ وَهِيَ الْإِحْسَانُ، فَقَالَ
تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وَالْإِحْسَانُ نَوْعَانِ:

الْإِحْسَانُ فِي عِبَادَةِ الْخَالِقِ.

وَالْإِحْسَانُ إِلَى الْمَخْلُوقِ.

* فَالْإِحْسَانُ فِي عِبَادَةِ الْخَالِقِ فَسَرَّهَا النَّبِيُّ ﷺ - كَمَا فِي «الصَّحِيحِ» (١) -؛
فَقَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

* وَأَمَّا الْإِحْسَانُ إِلَى الْمَخْلُوقِ: فَهُوَ إِيْصَالُ النِّفَعِ الدِّيْنِيِّ وَالْدُنْيَوِيِّ
إِلَيْهِمْ، وَدَفْعُ الشَّرِّ الدِّيْنِيِّ وَالْدُنْيَوِيِّ عَنْهُمْ، فَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ أَمْرُهُمْ
بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيُهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتَعْلِيمُ جَاهِلِهِمْ، وَوَعْظُ غَافِلِهِمْ، وَالنَّصِيحَةُ
لِعَامَّتِهِمْ وَخَاصَّتِهِمْ.

وَالسَّعْيُ فِي جَمْعِ كَلِمَتِهِمْ، وَإِيْصَالُ الصَّدَقَاتِ وَالنَّفَقَاتِ الْوَاجِبَةِ
وَالْمُسْتَحَبَّةِ إِلَيْهِمْ، عَلَى اخْتِلَافِ أَحْوَالِهِمْ، وَتَبَايُنِ أَوْصَافِهِمْ، فَيَدْخُلُ فِي
ذَلِكَ: بَذْلُ النَّدَى، وَكَفُّ الْأَذَى، وَاحْتِمَالُ الْأَذَى، كَمَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ الْمُتَّقِينَ
فِي هَذِهِ الْآيَاتِ.

(١) «صحيح البخاري»: ١/ ١١٤، رقم (٥٠) و ٨/ ٥١٣، رقم (٤٧٧٧)، و«صحيح

مسلم»: ١/ ٣٩، رقم (٩)، من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

والحديث في «صحيح مسلم»، من رواية ابن عمر رضي الله عنهما، بنحوه.

فَمَنْ قَامَ بِهَذِهِ الْأُمُورِ؛ فَقَدْ قَامَ بِحَقِّ اللَّهِ وَحَقِّ عِبَادِهِ».

وَقَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فِيمَا رَحِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

«أَيُّ: بِرَحْمَةِ اللَّهِ لَكَ وَلِأَصْحَابِكَ؛ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْكَ أَنْ أَلَنْتَ لَهُمْ جَانِبَكَ، وَخَفَضْتَ لَهُمْ جَنَاحَكَ، وَتَرَفَّقْتَ عَلَيْهِمْ، وَحَسَنْتَ لَهُمْ خُلُقَكَ، فَاجْتَمَعُوا عَلَيْكَ وَأَحْبَبُوكَ، وَامْتَثَلُوا أَمْرَكَ.

﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا﴾؛ أَيُّ: سَيِّئِ الْخُلُقِ، ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾؛ أَيُّ: قَاسِيَهُ، ﴿لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾؛ لِأَنَّ هَذَا يَنْفَرُهُمْ وَيَبْغِضُهُمْ لِمَنْ قَامَ بِهِ هَذَا الْخُلُقُ السَّيِّئُ.

فَالْأَخْلَاقُ الْحَسَنَةُ مِنَ الْمُقَدَّمِ فِي الدِّينِ تَجْذِبُ النَّاسَ إِلَى دِينِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَتُرَغَّبُهُمْ فِيهِ، مَعَ مَا لِصَاحِبِهِ مِنَ الْمَدْحِ وَالثَّوَابِ الْخَاصِّ.

وَالْأَخْلَاقُ السَّيِّئَةُ مِنَ الْمُقَدَّمِ فِي الدِّينِ تُنْفَرُ النَّاسَ عَنِ الدِّينِ، وَتُبْغِضُهُمْ إِلَيْهِ، مَعَ مَا لِصَاحِبِهَا مِنَ الذَّمِّ وَالْعِقَابِ الْخَاصِّ، فَهَذَا الرَّسُولُ الْمَعْصُومُ يَقُولُ اللَّهُ لَهُ مَا يَقُولُ، فَكَيْفَ بغيره؟! !!

أَلَيْسَ مِنْ أَوْجِبِ الْوَاجِبَاتِ، وَأَهَمِّ الْمُهَيَّمَاتِ الْإِقْتِدَاءُ بِأَخْلَاقِهِ الْكَرِيمَةِ، وَمُعَامَلَةُ النَّاسِ بِمَا يُعَامِلُهُمْ بِهِ ^{اللَّهُ بِهِ} مِنَ اللَّيْنِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ وَالتَّأَلُّفِ؛ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ، وَجَذْبًا لِعِبَادِ اللَّهِ لِذِينِ اللَّهِ.

ثُمَّ أَمَرَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - بِأَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ مَا صَدَرَ مِنْهُمْ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي حَقِّهِ وَاللَّيْثِ، وَيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ فِي التَّقْصِيرِ فِي حَقِّ اللَّهِ؛ فَيَجْمَعُ بَيْنَ الْعَفْوِ وَالْإِحْسَانِ.

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾؛ أَي: فِي الْأُمُورِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى اسْتِشَارَةِ وَنَظَرٍ وَفِكْرٍ؛ فَإِنَّ فِي الْإِسْتِشَارَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْمَصَالِحِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ مَا لَا يُمَكِّنُ حَصْرَهُ (١).

وَقَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿سَأَلْنَاكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

«وَهَذِهِ الْآيَاتُ - يَعْنِي هَذِهِ الْآيَةَ وَمَا تَلَاهَا فِي صَدْرِ السُّورَةِ - إِنَّمَا نَزَلَتْ فِي قِصَّةِ «بَدْرٍ» فِي أَوَّلِ غَنِيمَةٍ كَبِيرَةٍ غَنِمَهَا الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَحَصَلَ بَيْنَ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا نِزَاعٌ، فَسَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ - تَعَالَى - قَوْلَهُ: ﴿سَأَلْنَاكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾؛ كَيْفَ تُقَسِّمُ، وَعَلَى مَنْ تُقَسِّمُ؟

﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾؛ قُلْ لَهُمْ: الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، يَضَعَانَهَا حَيْثُ شَاءَا، فَلَا اعْتِرَاضَ لَكُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، بَلْ عَلَيْكُمْ إِذَا حَكَمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَنْ تَرْضَوْا بِحُكْمِهِمَا، وَتَسَلَّمُوا الْأَمْرَ لَهُمَا، وَذَلِكَ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ﴾؛ بِامْتِثَالِ أَوْامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ.

﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾: أَصْلِحُوا مَا بَيْنَكُمْ مِنَ التَّشَاحُنِ، وَالتَّقَاطُعِ، وَالتَّدَابُرِ؛ بِالتَّوَادُدِ، وَالتَّحَابِّ، وَالتَّوَاصُلِ، فَبِذَلِكَ تَجْتَمِعُ كَلِمَتُكُمْ، وَيَرْوُلُ مَا يَحْصُلُ - بِسَبَبِ التَّقَاطُعِ - مِنَ التَّخَاصُمِ وَالتَّشَاجُرِ وَالتَّنَازُعِ.

(١) «تيسير الكريم الرحمن»: ص ١٥٤، بتصرف يسير.

وَيَدْخُلُ فِي إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ: تَحْسِينُ الْخُلُقِ لَهُمْ، وَالْعَفْوُ عَنِ الْمُسِيئِينَ مِنْهُمْ، فَإِنَّهُ -بِذَلِكَ- يَزُولُ كَثِيرٌ مِمَّا يَكُونُ فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْبَغْضَاءِ وَالتَّدَابُرِ.

وَالْأَمْرُ الْجَامِعُ لِذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ؛ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، فَإِنَّ الْإِيمَانَ يَدْعُو إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، كَمَا أَنَّ مَنْ لَمْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، وَمَنْ نَقَصَتْ طَاعَتُهُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ؛ فَذَلِكَ لِنَقْصِ فِي إِيْمَانِهِ^(١).

وَقَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَنِيئَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَالِقُ الْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٥-

[٨٦].

«أَيُّ: مَا خَلَقْنَاهُمَا عَبَثًا وَبَاطِلًا كَمَا يَظُنُّ ذَلِكَ أَعْدَاءُ اللَّهِ، بَلْ مَا خَلَقْنَاهُمَا ﴿بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الَّذِي مِنْهُ أَنْ تَكُونَا بِمَا فِيهِمَا دَالَّتَيْنِ عَلَى كَمَالِ خَالِقِهِمَا، وَاقْتِدَارِهِ، وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَحِكْمَتِهِ، وَعِلْمِهِ الْمُحِيطِ، وَأَنَّهُ الَّذِي لَا تَبْغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَنِيئَةٌ﴾ لَا رَيْبَ فِيهَا، لَخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ، ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾: وَهُوَ الصَّفْحُ الَّذِي لَا أَدِيَّةَ فِيهِ، بَلْ يُقَابَلُ إِسَاءَةَ الْمُسِيءِ بِالْإِحْسَانِ، وَذَنْبُهُ بِالْغُفْرَانِ؛ لِتَنَالَ مِنْ رَبِّكَ جَزِيلَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ، فَإِنَّ كُلَّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ.

(١) «تيسير الكريم الرحمن»: ص ٣١٥.

وَالْمَأْمُورُ بِهِ هُوَ الصَّفْحُ الْجَمِيلُ؛ أَيِ الْحَسَنِ الَّذِي قَدْ سَلِمَ مِنَ الْحِقْدِ
وَالْأَذِيَّةِ الْقَوْلِيَّةِ وَالْفِعْلِيَّةِ، دُونَ الصَّفْحِ الَّذِي لَيْسَ بِجَمِيلٍ، وَهُوَ: الصَّفْحُ فِي غَيْرِ
مَحَلِّهِ، فَلَا يُصْفَحُ حَيْثُ اقْتَضَى الْمَقَامُ الْعُقُوبَةَ، كَعُقُوبَةِ الْمُعْتَدِينَ الظَّالِمِينَ،
الَّذِينَ لَا يَنْفَعُ مَعَهُمْ إِلَّا الْعُقُوبَةُ»^(١).

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ
الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

«وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ -تَعَالَى- بِعِبَادِهِ حَيْثُ أَمَرَهُمْ بِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ
وَالْأَقْوَالِ الْمُوجِبَةِ لِلسَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فَقَالَ -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ وَهَذَا أَمْرٌ بِكُلِّ
كَلَامٍ يُقَرِّبُ إِلَى اللَّهِ مِنْ قِرَاءَةٍ وَذِكْرٍ وَعِلْمٍ وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ وَنَهْيٍ عَنِ مُنْكَرٍ، وَكَلَامٍ
حَسَنٍ لَطِيفٍ مَعَ الْخَلْقِ عَلَى اخْتِلَافِ مَرَاتِبِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ، وَأَنَّهُ إِذَا دَارَ الْأَمْرُ بَيْنَ
أَمْرَيْنِ حَسَنَيْنِ؛ فَإِنَّهُ يَوْمَرُ بِإِيثَارِ أَحْسَنِهِمَا إِنْ لَمْ يُمَكِّنِ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا.

وَالْقَوْلُ الْحَسَنُ دَاعٍ لِكُلِّ خُلُقٍ جَمِيلٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ، فَإِنَّ مَنْ مَلَكَ لِسَانَهُ
مَلَكَ جَمِيعَ أَمْرِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾؛ أَيِ: يَسْعَى بَيْنَ الْعِبَادِ بِمَا يُفْسِدُ
عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَدُنْيَاهُمْ، فَدَوَاءُ هَذَا أَلَّا يُطِيعُوهُ فِي الْأَقْوَالِ غَيْرِ الْحَسَنَةِ الَّتِي
يَدْعُوهُمْ إِلَيْهَا، وَأَنْ يَلِينُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ؛ لِيَنْقَمَعَ الشَّيْطَانُ الَّذِي يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ؛ فَإِنَّهُ

(١) المصدر السابق: ص ٤٣٤.

عَدُوَّهُمُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يُحَارِبُوهُ، فَإِنَّهُ يَدْعُوهُمْ ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وَأَمَّا إِخْوَانُهُمُ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا بَيْنَهُمْ فَإِنَّهُمْ.. وَإِنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَسَعَى فِي الْعَدَاوَةِ؛ فَإِنَّ الْحَزْمَ كُلَّ الْحَزْمِ السَّعْيُ فِي صَدِّ عَدُوِّهِمْ، وَأَنْ يَقْمَعُوا أَنْفُسَهُمُ الْأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ الَّتِي يَدْخُلُ الشَّيْطَانُ مِنْ قِبَلِهَا، فَبِذَلِكَ يُطِيعُونَ رَبَّهُمْ، وَيَسْتَقِيمُ أَمْرُهُمْ، وَيُهْدُونَ لِرُشْدِهِمْ» (١).

وَقَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا عَنْ قَوْلِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٧) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزْجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُونُسَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَءِذَا نَتَّكَ يُونُسَ قَالَ أَنَا يُونُسَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿

[يوسف: ٨٧-٩٢].

«أَيُّ: قَالَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِبَنِيهِ: ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ﴾؛ أَيُّ: اْحْرِصُوا وَاجْتَهِدُوا عَلَى التَّفْتِيشِ عَنْهُمَا، ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾؛ فَإِنَّ

(١) «تيسير الكريم الرحمن»: ص ٤٦٠.

الرَّجَاءَ يُوجِبُ لِلْعَبْدِ السَّعْيَ وَالْاجْتِهَادَ فِيمَا رَجَاهُ، وَأَمَّا الْإِيَّاسُ فَيُوجِبُ لَهُ التَّشَاوُلَ وَالتَّبَاطُؤَ، وَأَوْلَى مَا رَجَا الْعِبَادُ فَضْلَ اللَّهِ وَإِحْسَانَهُ، وَرَحْمَتَهُ وَرَوْحَهُ.

﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾: فَإِنَّهُمْ -لِكُفْرِهِمْ- يَسْتَبْعِدُونَ رَحْمَتَهُ، وَرَحْمَتُهُ بَعِيدَةٌ مِنْهُمْ، فَلَا تَشَبَّهُوا بِالْكَافِرِينَ.

وَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ بِحَسَبِ إِيْمَانِ الْعَبْدِ؛ يَكُونُ رَجَاؤُهُ لِرَحْمَةِ اللَّهِ وَرَوْحِهِ.

فَذَهَبُوا، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ قَالُوا مُتَّضِرِّعِينَ إِلَيْهِ: ﴿يَتَأْتِيهَا الْعَزِيزُ مَسْنًا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزْحَنَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾؛ أَي: قَدْ اضْطَرُّرْنَا نَحْنُ وَأَهْلُنَا، وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مَدْفُوعَةٍ مَرْغُوبٍ عَنْهَا؛ لِقِلَّتِهَا، وَعَدَمِ وَقُوعِهَا الْمَوْقِعَ، ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ مَعَ عَدَمِ وِفَاءِ الْعِوَضِ، وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا بِالزِّيَادَةِ عَنِ الْوَاجِبِ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ بِثَوَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فَلَمَّا انْتَهَى الْأَمْرُ، وَبَلَغَ أَشُدَّهُ، رَقَّ لَهُمْ يُوسُفُ رِقَّةً شَدِيدَةً، وَعَرَفَهُمْ بِنَفْسِهِ، وَعَاتَبَهُمْ؛ فَقَالَ: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾!!؟

أَمَّا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَظَاهِرٌ فِعْلُهُمْ فِيهِ، وَأَمَّا أَخُوهُ؛ فَلَعَلَّهُ -وَاللَّهُ أَعْلَمُ- قَوْلُهُمْ: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧]، أَوْ أَنَّ الْحَادِثَ الَّذِي فَرَّقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ هُمُ السَّبَبُ فِيهِ، وَهُمْ الْأَصْلُ الْمَوْجِبُ لَهُ.

﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾: وَهَذَا نَوْعٌ اعْتِدَارٍ لَهُمْ بِجَهْلِهِمْ، أَوْ تَوِيخٍ لَهُمْ؛ إِذْ فَعَلُوا فِعْلَ الْجَاهِلِينَ، مَعَ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي وَلَا يَلِيْقُ مِنْهُمْ.

فَعَرَفُوا أَنَّ الَّذِي خَاطَبَهُمْ هُوَ يُوسُفُ، فَقَالُوا: ﴿أَيْنَكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ۗ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ۗ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۗ بِالْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى، وَالتَّمَكِينِ فِي الدُّنْيَا، وَذَلِكَ بِسَبَبِ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى، فَ﴿إِنَّهُ، مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾؛ أَي: يَتَّقِ فِعْلَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَيَصْبِرْ عَلَى الْأَلَامِ وَالمَصَائِبِ، وَعَلَى الْأَوَامِرِ بِامْتِثَالِهَا، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ فَإِنَّ هَذَا مِنَ الْإِحْسَانِ، وَاللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾؛ أَي: فَضَّلَكَ عَلَيْنَا بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَمَحَاسِنِ الشَّيْمِ، وَأَسَانَا إِلَيْكَ غَايَةَ الْإِسَاءَةِ، وَحَرَضَنَا عَلَى إِيْصَالِ الْأَذَى إِلَيْكَ، وَالتَّبَعِيدِ لَكَ عَنْ أَبِيكَ، فَآثَرَكَ اللَّهُ تَعَالَى، وَمَكَّنَكَ مِمَّا تُرِيدُ، ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ﴾؛ وَهَذَا غَايَةُ الْإِعْتِرَافِ مِنْهُمْ بِالْجُرْمِ الْحَاصِلِ مِنْهُمْ عَلَى يُوسُفَ.

فَقَالَ لَهُمْ يُوسُفُ عليه السلام - كَرَمًا وَجُودًا-: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ ۗ﴾؛ أَي: لَا أَثْرِبُ عَلَيْكُمْ، وَلَا أَلُومُكُمْ، ﴿يَعْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

فَسَمَحَ لَهُمْ سَمَاحًا تَامًا، مِنْ غَيْرِ تَعْيِيرٍ لَهُمْ عَلَى ذِكْرِ الذَّنْبِ السَّابِقِ، وَدَعَا لَهُمْ بِالمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَهَذَا نِهَآيَةُ الْإِحْسَانِ الَّذِي لَا يَتَأْتَى إِلَّا مِنْ خَوَاصِّ الْخَلْقِ، وَخِيَارِ الْمُصْطَفَيْنِ^(١).

(١) «تيسير الكريم الرحمن»: ص ٤٠٤-٤٠٥.

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ادْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ ۖ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾

[المؤمنون: ٩٦].

«وَهَذَا مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِهَا؛ فَقَالَ: ﴿ادْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾؛ أَي: إِذَا أَسَاءَ إِلَيْكَ أَعْدَاؤُكَ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ فَلَا تُقَابِلَهُمْ بِالْإِسَاءَةِ، مَعَ أَنَّهُ يَجُوزُ مُعَاقِبَةُ الْمُسِيءِ بِمِثْلِ إِسَاءَتِهِ، وَلَكِنْ ادْفَعِ إِسَاءَتَهُمْ إِلَيْكَ بِالْإِحْسَانِ مِنْكَ إِلَيْهِمْ، فَإِنَّ ذَلِكَ فَضْلٌ مِنْكَ عَلَى الْمُسِيءِ.

وَمِنْ مَصَالِحِ ذَلِكَ أَنَّهُ تَخَفُّ الْإِسَاءَةِ عَنْكَ فِي الْحَالِ وَفِي الْإِسْتِقْبَالِ، وَأَنَّهُ ادَّعَى لِيَجْلِبَ الْمُسِيءُ إِلَى الْحَقِّ، وَأَقْرَبُ إِلَى نَدَمِهِ وَأَسْفِهِ، وَرُجُوعِهِ بِالتَّوْبَةِ عَمَّا فَعَلَ، وَيَتَّصِفُ الْعَافِي بِصِفَةِ الْإِحْسَانِ، وَيَقْهَرُ بِذَلِكَ عَدُوَّهُ الشَّيْطَانَ، وَيَسْتَوْجِبُ الثَّوَابَ مِنَ الرَّبِّ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ادْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾

﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقَاهَا﴾؛ أَي: وَمَا يُوفَّقُ لِهَذَا الْخُلُقِ الْجَمِيلِ ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ حَظَّ عَظِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]؛ أَي: بِمَا يَقُولُونَ مِنْ

الْأَقْوَالِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِلْكَفْرِ وَالتَّكْذِيبِ بِالْحَقِّ، قَدْ أَحَاطَ عَلِمْنَا بِذَلِكَ، وَقَدْ حَلَمْنَا عَنْهُمْ، وَأَمَهَلْنَاهُمْ، وَصَبَرْنَا عَلَيْهِمْ، وَالْحَقُّ لَنَا، وَتَكْذِيبُهُمْ لَنَا، فَأَنْتَ - يَا مُحَمَّدُ -

يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَصْبِرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ، وَتُقَابِلَهُمْ بِالْإِحْسَانِ، هَذِهِ وَظِيفَةُ الْعَبْدِ فِي مُقَابَلَةِ الْمُسِيءِ مِنَ الْبَشَرِ» (١).

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿ [فصلت: ٣٤-٣٥].

«قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾؛ أَي: لَا يَسْتَوِي فِعْلُ الْحَسَنَاتِ وَالطَّاعَاتِ لِأَجْلِ رِضَا رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ، وَلَا فِعْلُ السَّيِّئَاتِ وَالْمَعَاصِي الَّتِي تُسْخِطُهُ وَلَا تُرْضِيهِ.

وَلَا يَسْتَوِي الْإِحْسَانُ إِلَى الْخَلْقِ، وَلَا الْإِسَاءَةُ إِلَيْهِمْ، لَا فِي ذَاتِهَا، وَلَا فِي وَصْفِهَا، وَلَا فِي جَزَائِهَا: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

ثُمَّ أَمَرَ بِالْإِحْسَانِ خَاصًّا، لَهُ مَوْقِعٌ كَبِيرٌ، وَهُوَ الْإِحْسَانُ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ؛ فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ أَي: فَإِذَا أَسَاءَ إِلَيْكَ مُسِيءٌ مِنَ الْخَلْقِ - خُصُوصًا مَنْ لَهُ حَقٌّ كَبِيرٌ عَلَيْكَ؛ كَالْأَقَارِبِ، وَالْأَصْحَابِ، وَنَحْوِهِمْ - إِسَاءَةً بِالْقَوْلِ أَوْ بِالْفِعْلِ، فَقَابِلُهُ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، فَإِنْ قَطَعَكَ فَصَلِّهِ، وَإِنْ ظَلَمَكَ فَاعْفُ عَنْهُ، وَإِنْ تَكَلَّمَ فِيكَ غَائِبًا أَوْ حَاضِرًا فَلَا تُقَابِلُهُ، بَلِ اعْفُ عَنْهُ، وَعَامِلُهُ بِالْقَوْلِ اللَّيِّنِ، وَإِنْ هَجَرَكَ وَتَرَكَ خِطَابَكَ فَطَيِّبْ لَهُ كَلَامَكَ، وَابْذُلْ لَهُ سَلَامَكَ.

(١) «تيسير الكريم الرحمن»: ص ٥٥٨-٥٥٩.

فَإِذَا قَابَلْتَ الْإِسَاءَةَ بِالْإِحْسَانِ؛ حَصَلَ فَائِدَةٌ عَظِيمَةٌ: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ
عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ بَوْلِي حَمِيمٌ﴾؛ أَي: كَأَنَّهُ قَرِيبٌ شَفِيقٌ.

﴿وَمَا يُقَلِّفُهَا﴾؛ أَي: وَمَا يُوفِّقُ لِهَذِهِ الْخَصَلَةِ الْحَمِيدَةِ ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾
نُفُوسَهُمْ عَلَى مَا تَكَرَّرَ، وَأَجْبَرُوهَا عَلَى مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ، فَإِنَّ النُّفُوسَ مَجْبُولَةٌ عَلَى
مُقَابَلَةِ الْمُسِيءِ بِإِسَاءَتِهِ، وَعَدَمِ الْعَفْوِ عَنْهُ، فَكَيْفَ بِالْإِحْسَانِ!!؟

فَإِذَا صَبَرَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ، وَامْتَثَلَ أَمْرَ رَبِّهِ، وَعَرَفَ جَزِيلَ الثَّوَابِ، وَعَلِمَ أَنَّ
مُقَابَلَتَهُ لِلْمُسِيءِ بِجِنْسِ عَمَلِهِ، لَا يُفِيدُهُ شَيْئًا، وَلَا يَزِيدُ الْعَدَاوَةَ إِلَّا شِدَّةً، وَأَنَّ
إِحْسَانَهُ إِلَيْهِ لَيْسَ بِوَاضِعٍ قَدْرَهُ، بَلْ مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ، وَهَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ، وَفَعَلَ
ذَلِكَ مُتَلَذِّذًا مُسْتَحْلِيًّا لَهُ.

﴿وَمَا يُقَلِّفُهَا إِلَّا دُوْحَظٍ عَظِيمٍ﴾؛ لِكَوْنِهَا مِنْ خِصَالِ خَوَاصِّ الْخَلْقِ، الَّتِي يَنَالُ
بِهَا الْعَبْدُ الرَّفْعَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، الَّتِي هِيَ مِنْ أَكْبَرِ خِصَالِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ^(١).
«وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْعَفْوِ وَالذُّلِّ: أَنَّ الْعَفْوَ إِسْقَاطُ حَقِّكَ؛ جُودًا، وَكَرَمًا،
وَإِحْسَانًا.. مَعَ قُدْرَتِكَ عَلَى الْإِنْتِقَامِ، فَتَوَثَّرَ التَّرْكَ؛ رَغْبَةً فِي الْإِحْسَانِ وَمَكَارِمِ
الْأَخْلَاقِ، بِخِلَافِ الذُّلِّ، فَإِنَّ صَاحِبَهُ يَتْرُكُ الْإِنْتِقَامَ عَجْزًا وَخَوْفًا، وَمَهَانَةً نَفْسٍ،
فَهَذَا مَذْمُومٌ غَيْرٌ مَحْمُودٌ.

وَلَعَلَّ الْمُتَّقِمَ بِالْحَقِّ أَحْسَنُ حَالًا مِنْهُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ

يَنْصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩].

(١) «تيسير الكريم الرحمن»: ص ٧٤٩-٧٥٠.

فَمَدَحَهُمْ لِقَوَّتِهِمْ عَلَى الْإِنْتِصَارِ لِنُفُوسِهِمْ، وَتَقَاضِيهِمْ مِنْهَا ذَلِكَ، حَتَّى إِذَا قَدَرُوا عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيْهِمْ، وَتَمَكَّنُوا مِنْ اسْتِيفَاءِ مَا لَهُمْ عَلَيْهِ، نَدَبَهُمْ إِلَى الْخُلُقِ الشَّرِيفِ مِنَ الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ؛ فَقَالَ: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

فَذَكَرَ الْمَقَامَاتِ الثَّلَاثَةَ:

* الْعَدْلَ، وَأَبَاحَهُ.

* وَالْفَضْلَ، وَنَدَبَ إِلَيْهِ.

* وَالظُّلْمَ، وَحَرَمَهُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَكَيْفَ مَدَحَهُمْ عَلَى الْإِنْتِصَارِ وَالْعَفْوِ وَهُمَا مُتَنَافِيَانِ؟

قِيلَ: لَمْ يَمْدَحَهُمْ عَلَى الْإِسْتِيفَاءِ وَالْإِنْتِقَامِ؛ وَإِنَّمَا مَدَحَهُمْ عَلَى الْإِنْتِصَارِ، وَهُوَ الْقُدْرَةُ وَالْقُوَّةُ عَلَى اسْتِيفَاءِ حَقِّهِمْ، فَلَمَّا قَدَرُوا نَدَبَهُمْ إِلَى الْعَفْوِ.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: «كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يُسْتَدَلُّوا، فَإِذَا قَدَرُوا عَفَوْا، فَمَدَحَهُمْ عَلَى عَفْوٍ بَعْدَ قُدْرَةٍ، لَا عَلَى عَفْوٍ ذِلَّةٍ وَعَجْزٍ وَمَهَانَةٍ، وَهَذَا هُوَ الْكَمَالُ الَّذِي مَدَحَ - سُبْحَانَهُ - بِهِ نَفْسَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]، وَقَالَ: ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَجِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨]» (١). (*)



(١) «الروح» لابن القيم: ص ٦٧٨-٦٧٩.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ خُطْبَةٍ: «التَّسَامُحُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ» - الْجُمُعَةُ ١١ مِنْ جُمَادَى

الْآخِرَةِ ١٤٣٨ هـ | ١٠-٣-٢٠١٧ م.

النَّبِيُّ ﷺ الْأُسْوَةُ الْحَسَنَةُ فِي الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ

لَقَدْ كَانَ إِمَامُ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ فِي «حُسْنِ الْخُلُقِ» عَلَى الْقِمَّةِ الشَّامِخَةِ، وَفَوْقَ الْغَايَةِ وَالْمُسْتَهَيِّ، فَكَانَ كَمَا قَالَ عَنْهُ رَبُّهُ ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. (*)

عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ نَجْدٍ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَفَلَ مَعَهُ -أَي: رَجَعَ مَعَهُ-، فَأَذْرَكَتْهُمُ الْقَائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ -وَالْعِضَاهُ: نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الشَّجَرِ- فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الْعِضَاهِ، يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ سَمْرَةٍ؛ فَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ.

قَالَ جَابِرٌ: فَمِنَّا نَوْمَةٌ، ثُمَّ إِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُونَا، فَجِئْنَا، فَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ جَالِسٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ سَيْفِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا، فَقَالَ لِي: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قُلْتُ: اللَّهُ».

فَهَا هُوَ جَالِسٌ، ثُمَّ لَمْ يُعَاقِبْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ (٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ بِاخْتِصَارٍ مِنْ كِتَابِ «حُسْنِ الْخُلُقِ»، الطَّبَعَةُ الثَّلَاثَةُ.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الصَّحِيحِ»: ٤٢٦/٧، رَقْم (٤١٣٤)، وَمُسْلِمٌ فِي «الصَّحِيحِ»:

١٧٨٦/٤، رَقْم (٨٤٣).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلوات الله عليه وآله وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكُهُ أَعْرَابِيٌّ، فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبَذَةً شَدِيدَةً^(١)، نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عُنُقِ رَسُولِ اللَّهِ صلوات الله عليه وآله وَقَدْ أَثَرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَبَذَتِهِ.

ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! مُرِّ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صلوات الله عليه وآله فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(٢).

جَبَذَهُ: جَذَبَهُ.

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صلوات الله عليه وآله شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا أَمْرًا وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ، إِلَّا أَنْ يُتْهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عز وجل. أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ^(٣).

(١) وفي رواية البخاري: «... فَجَبَذَهُ جَبَذَةً شَدِيدَةً...»، وجذب وجذب لغتان مشهورتان، والمراد: شده.

انظر: شرح النووي على «صحيح مسلم»: ١٤٧/٧.

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح»: ٢٥١/٦، رقم (٣١٤٩)، ومسلم في «الصحيح»: ٧٣٠/٢، رقم (١٠٥٧).

وفي رواية لمسلم: «...، ثُمَّ جَبَذَهُ إِلَيْهِ جَبَذَةً، رَجَعَ نَبِيُّ اللَّهِ صلوات الله عليه وآله فِي نَحْرِ الْأَعْرَابِيِّ»، أي استقبال صلوات الله عليه وآله نحره استقبالا تاما ولم يتأثر من سوء أدبه، وفي أخرى: «...، فَجَادَبَهُ حَتَّى أَنْشَقَ الْبُرْدُ، وَحَتَّى بَقِيَتْ حَاشِيَتُهُ فِي عُنُقِ رَسُولِ اللَّهِ صلوات الله عليه وآله».

(٣) أخرجه مسلم في «الصحيح»: ١٨١٤/٤، رقم (٢٣٢٨)، والحديث أصله في «الصحيحين» بنحوه.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا رُزِقَ عَبْدٌ خَيْرًا لَهُ وَلَا أَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»^(١). أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، ضَرْبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمُوهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(٢). (*).



(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک»: ٢/ ٤١٤، رقم (٣٥٥٢).

والحدیث صححه الألباني في «الصحيحة»: ١/ ٨٠٩، رقم (٤٤٨).

وَالْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الصَّحِيحِ»: ٣/ ٣٣٥، رَقْم (١٤٦٩) وَ ١١/ ٣٠٣، رَقْم (٦٤٧٠)، وَمُسْلِمٌ فِي «الصَّحِيحِ»: ٢/ ٧٢٩، رَقْم (١٠٥٣)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا عِنْدَهُ قَالَ: «مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَصْبِرْ يُصْبِرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ».

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح»: ٦/ ٥١٤، رقم (٣٤٧٧) و ١٢/ ٢٨٢، رقم (٦٩٢٩)، ومسلم في «الصحيح»: ٢/ ١٤١٧، رقم (١٧٩٢).

(* مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصِرٌ مِنْ حُطْبَةٍ: «التَّسَامُحُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ» - الْجُمُعَةُ ١١ مِنْ جُمَادَى

نَمَازُجٌ مِنْ عَفْوٍ وَصَفْحٍ سَلَفِنَا الصَّالِحِينَ

وَهَذِهِ نَمَازُجٌ مُضِيئَةٌ فِي الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ مِنْ سِيرِ سَلَفِنَا الصَّالِحِينَ؛ فَقَدْ شَتَمَ رَجُلٌ عُمَرَ بْنَ ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: «يَا هَذَا! إِنِّي قَدْ أَمْتُ مُشَاتِمَةَ الرَّجَالِ صَغِيرًا، فَلَنْ أُحْيِيهَا كَبِيرًا، وَأَنَا لَا أَكْفِي مَنْ عَصَى اللَّهَ فِي بَأْكَثَرٍ مِنْ أَنْ أُطِيعَ اللَّهَ فِيهِ»^(١).

وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَقَالَ: إِنَّ فُلَانًا شَتَمَكَ!
فَقَالَ: اذْهَبْ بِنَا إِلَيْهِ.

(١) أخرجه البرُجُلاني في «الكرم والجود»: (ص ٤٦، رقم ٣٥)، وابن قتيبة في «عيون الأخبار»: (١/٣٩٩)، وأبو عروبة الحراني في «جزء له» رواية الأنطاكي: (ص ١٩، رقم ١٨)، والدينوري في «المجالسة»: (٤/٤٠٧-٤٠٨، رقم ١٦٠٢)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء»: (٥/١١٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان»: (١٠/٤٢١-٤٢٢، رقم ٧٧٣٠) و(١١/٣٠-٣١، رقم ٨١٠٦)، والخطيب في «تاريخ بغداد»: (١١/١٨٧-١٨٨)، ترجمة ابن عياش)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق»: (٤٥/٢٧-٢٨، ترجمة عمر بن ذر)، وهو صحيح عنه.

وروي عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بنحوه.

فَأَخَذَ بِيَدِهِ حَتَّى صَارَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ، وَالرَّجُلُ الَّذِي نَقَلَ يَظُنُّ أَنَّهُ مَا ذَهَبَ إِلَّا مِنْ أَجْلِ الْمُعَاقِبَةِ، فَلَمَّا صَارَ عِنْدَهُ أَقْبَلَ عَلَيَّ عَلَيْهِ فَقَالَ: «يَا أَخِي! إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَغْفَرَ اللَّهُ لِي، وَإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَغْفَرَ اللَّهُ لَكَ» (١).

وَهَذَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ لَا تَغِيبُ عَنْهُ أَسْبَابُ انْفِعَالِهِ حَالَ انْفِعَالِهِ لِحِظَّةٍ وَاحِدَةً فِي مَجْلِسِ الْعِلْمِ، وَهُوَ فِيهِ رَأْسٌ.. عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَسَنِ الْعَنْبَرِيُّ؛ يُسَأَلُ فِي مَجْلِسِ الْعِلْمِ سُؤَالًا، وَوَرَدَتِ الْمَسْأَلَةُ، فَأَخْطَأَ حِينَ الْجَوَابِ، وَغَلِطَ فِي الْإِجَابَةِ، فَكَانَ مَاذَا؟!!!

لَا شَيْءَ، وَمَنْ الَّذِي لَا يَغْلُطُ؟! خَطِئَ الْمَسْأَلَةَ بَعْدَ الْمَسْأَلَةِ لَا يُدْرِكُ فِيهَا صَوَابًا، وَلَا يَفْتَحُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِلَيَّ الْإِجَابَةَ فِيهَا بَابًا، فَكَانَ مَاذَا?!!!

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق»: (١/٣٩٥)، ترجمة علي بن الحسين)، بإسناده، عن أبي يعقوب المدني، قال:

«كان بين حسن بن علي بن حسين بعض الأمر، فجاء حسن بن حسن إلى علي بن حسين وهو مع أصحابه في المسجد، فما ترك شيئًا إلا قاله له، قال: وعلي ساكت، فانصرف حسن، فلما كان الليل أتاه في منزله، ففرغ عليه بابه، فخرج إليه، فقال له علي: «يا أخي، إن كنت صادقًا فيما قلت لي يغفر الله لي، وإن كنت كاذبًا يغفر الله لك، السلام عليكم»، وولى.

قال: فاتبعه حسن فلحقه، فالتزمه من خلفه وبكى حتى رثى له، ثم قال: «لا جرم لا عدت في أمر تكرهه»، فقال علي: «وأنت في حل مما قلت لي».

وبهذا المعنى فسّر قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ ذُو حِظٍّ

عَظِيمٍ ﴿ [فصلت: ٣٤-٣٥]، وروى عن عامر الشعبي نحوه.

لَا شَيْءَ.

فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ غَلَطُهُ نَكَسَ رَأْسَهُ سَاعَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «إِذَنْ؛ أَعُودُ إِلَى الْحَقِّ وَأَنَا صَاغِرٌ، وَلَآنَ أَكُونُ ذَنْبًا فِي الْحَقِّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكُونَ رَأْسًا فِي الْبَاطِلِ»^(١). (*)



(١) أخرجَه وكيع في «أخبار القضاة»: (٢/٩٠)، وأبو نعيم في «الحلية»: (٩/٥-٦ و٤١)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم»: (١/٥٣٤، رقم ٨٧٧)، والخطيب في «تاريخ بغداد»: (٩/١٢)، ترجمة عبيد الله بن الحسن العنبري، وأبو الحسين الصيرفي كما في «الطيوريات» انتخاب السلفي: (٢/٣٠٥، رقم ٢٤٧)، وابن الجوزي في «المنتظم»: (٨/٢٩٨)، ترجمة عبيد الله العنبري، بإسناد صحيح.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مَقْطَعٍ بِعُنْوَانٍ: «حُسْنُ الْخُلُقِ وَخَطُورَةُ الْكَلِمَةِ مِنْ سِلْسِلَةِ الْقَوْلِ الْمُبِينِ».

مَثَالُ مَضْرُوبٍ فِي الْعَفْوِ وَالْإِحْسَانِ

لَقَدْ تَذَاكَرَ جَمَاعَةٌ فِيمَا بَيْنَهُمْ آثَارَ مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ، وَهُوَ مِنْ أَشْهَرِ أَجْوَادِ الْعَرَبِ، أَدْرَكَ الْعَصْرَيْنِ الْأُمُوِيَّ وَالْعَبَّاسِيَّ، وَوَلَاهُ الْمَنْصُورُ إِمَارَةَ (سَجِسْتَانَ)، فَأَقَامَ بِهَا، ثُمَّ قُتِلَ بِهَا غِيلَةً سَنَةَ إِحْدَى وَخَمْسِينَ وَمِائَةَ (١٥١هـ)، وَثَبَّتَ عَلَيْهِ خَوَارِجٌ وَهُوَ يَحْتَجِمُ فُقْتُلُوهُ.

تَذَاكَرَ جَمَاعَةٌ فِيمَا بَيْنَهُمْ آثَارَ مَعْنٍ وَأَخْبَارَ كَرَمِهِ، مُعْجَبِينَ بِمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ التُّؤَدَةِ وَوَفْرَةِ الْحِلْمِ وَلِينِ الْجَانِبِ، وَغَالُوا فِي ذَلِكَ كَثِيرًا، فَقَامَ أَعْرَابِيٌّ وَأَخَذَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يُغْضِبَهُ، فَأَنْكَرُوا عَلَيْهِ، وَوَعَدُوهُ مِائَةَ بَعِيرٍ إِذَا هُوَ فَعَلَ ذَلِكَ.

فَعَمَدَ الْأَعْرَابِيُّ إِلَى بَعِيرٍ فَسَلَخَهُ وَارْتَدَى بِإِهَابِهِ - وَالْإِهَابُ: الْجِلْدُ مَا لَمْ يُدْبَعْ -، وَاحْتَدَى بِبَعْضِهِ - وَاحْتَدَى؛ أَي: انْتَعَلَ بِبَعْضِهِ -، جَاعِلًا بَاطِنَهُ ظَاهِرًا، وَدَخَلَ عَلَى مَعْنٍ بِصُورَتِهِ تِلْكَ، وَأَنْشَأَ الرَّجُلُ يَقُولُ:

أَتَذْكُرُ إِذْ لِحَافِكَ جِلْدُ شَاةٍ وَإِذْ نَعْلَاكَ مِنْ جِلْدِ الْبَعِيرِ

قَالَ مَعْنٌ: أَذْكُرُهُ وَلَا أَنْسَاهُ.

فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ:

فَسُبْحَانَ الَّذِي أَعْطَاكَ مُلْكًا وَعَلَّمَكَ الْجُلُوسَ عَلَى السَّرِيرِ

فَقَالَ مَعْنٌ: إِنَّ اللَّهَ يُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ.

فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ:

فَلَسْتُ مُسْلِمًا إِنْ عَشْتُ دَهْرًا عَلَى مَعْنٍ بِتَسْلِيمِ الْأَمِيرِ

فَقَالَ مَعْنٌ: السَّلَامُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ فِي تَرْكِهِ ضَيْرٌ.

فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ:

سَأَرْحَلُ عَنْ بِلَادٍ أَنْتَ فِيهَا وَلَوْ جَارَ الزَّمَانُ عَلَى الْفَقِيرِ

فَقَالَ مَعْنٌ: إِنْ جَاوَزْتَنَا فَمَرَّ حَبًّا بِالْإِقَامَةِ، وَإِنْ جَاوَزْتَنَا فَمَصْحُوبًا بِالسَّلَامَةِ.

فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ:

فَجُدْ لِي يَا ابْنَ نَاقِصَةِ بِمَالٍ فَإِنِّي قَدْ عَزَمْتُ عَلَى الْمَسِيرِ

-قَالَ: يَا ابْنَ نَاقِصَةِ، بَدَلًا مِنْ: ابْنِ زَائِدَةَ! احْتِقَارًا لَهُ!!-

فَجُدْ لِي يَا ابْنَ نَاقِصَةِ بِمَالٍ فَإِنِّي قَدْ عَزَمْتُ عَلَى الْمَسِيرِ

فَقَالَ مَعْنٌ: أَعْطَوْهُ أَلْفَ دِينَارٍ تُخَفِّفُ عَنْهُ مَشَاقَّ الْأَسْفَارِ.

فَأَخَذَهَا وَقَالَ:

قَلِيلٌ مَا أَتَيْتَ بِهِ وَإِنِّي لَأَطْمَعُ مِنْكَ فِي الْمَالِ الْكَثِيرِ

فَشَنَّ فَقَدْ آتَاكَ الْمُلْكُ عَفْوًا بِلَا عَقْلٍ وَلَا رَأْيٍ مُنِيرِ

فَقَالَ مَعْنٌ: أَعْطُوهُ أَلْفًا ثَانِيَةً؛ كَيْ يَكُونَ عَنَّا رَاضِيًا.

فَتَقَدَّمَ الْأَعْرَابِيُّ إِلَيْهِ، وَقَبَّلَ الْأَرْضَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقَالَ:

سَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يُبْقِيَكَ دَهْرًا فَمَالِكَ فِي الْبَرِيَّةِ مِنْ نَظِيرِ
فَمِنْكَ الْجُودُ وَالْإِفْضَالُ حَقًّا وَفَيْضُ يَدَيْكَ كَالْبَحْرِ الْغَزِيرِ

فَقَالَ مَعْنٌ: أَعْطَيْنَاهُ عَلَيَّ هَجُونًا أَلْفَيْنِ، فَلْيُعْطِ أَرْبَعَةً عَلَيَّ مَدْحِنًا.

فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: بِأَبِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ وَنَفْسِي؛ فَأَنْتَ نَسِيحٌ وَحَدَكُ فِي الْحِلْمِ،
وَنَادِرَةٌ دَهْرُكَ فِي الْجُودِ، وَلَقَدْ كُنْتُ فِي صِفَاتِكَ بَيْنَ مُصَدِّقٍ وَمُكْذِبٍ، فَلَمَّا
بَلَوْتُكَ صَغَرَ الْخَبْرُ الْخَبْرَ، وَأَذْهَبَ ضَعْفَ الشُّكِّ قُوَّةُ الْيَقِينِ، وَمَا بَعَثَنِي عَلَيَّ مَا
فَعَلْتُ إِلَّا مِائَةً بَعِيرٍ جُعِلَتْ لِي عَلَيَّ إِغْضَابُكَ.

فَقَالَ لَهُ مَعْنٌ: لَا تَتْرِبَ عَلَيْكَ، وَوَصَلَهُ بِمَائَتِي بَعِيرٍ؛ نِصْفَهَا لِلرَّهَانِ،
وَالنِّصْفَ الْآخِرُ لَهُ.

فَانصَرَفَ الْأَعْرَابِيُّ دَاعِيًا لَهُ، شَاكِرًا لِهَبَاتِهِ، مُعْجَبًا بِأَنَاتِهِ.

وَقَدْ خَرَجَ مَعْنٌ بِنُ زَائِدَةَ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ خَوَاصِهِ لِلصَّيْدِ، فَاعْتَرَضَهُمْ قَطِيعٌ
مِنْ ظِبَاءٍ؛ فَتَفَرَّقُوا فِي طَلَبِهِ، وَانفَرَدَ مَعْنٌ خَلْفَ ظَبِيٍّ حَتَّى انْقَطَعَ عَنْ أَصْحَابِهِ،
فَلَمَّا ظَفَرَ بِهِ نَزَلَ فَدَبَّحَهُ، فَرَأَى شَيْخًا مُقْبِلًا مِنَ الْبَرِيَّةِ عَلَيَّ حِمَارٍ، فَرَكِبَ فَرَسَهُ
وَاسْتَقْبَلَهُ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ؟ وَإِلَى أَيْنَ؟

قَالَ: أَتَيْتُ مِنْ أَرْضٍ لَهَا عِشْرُونَ سَنَةً مُجْدِبَةً، وَقَدْ أَحْصَبْتُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ،
فَزَرَعْتُهَا مَقْتَاةً -وَالْمَقْتَاةُ: مَوْضِعُ الْقِتَاءِ-، فَأَخْرَجَتِ الْقِتَاءَ فِي غَيْرِ أَوَانٍ،

فَجَمَعْتُ مِنْهَا مَا اسْتَحْسَنْتُهُ، وَقَصَدْتُ بِهِ مَعْنَ بْنَ زَائِدَةَ؛ لِكَرَمِهِ الْمَشْكُورِ،
وَفَضْلِهِ الْمَشْهُورِ، وَمَعْرُوفِهِ الْمَأْتُورِ، وَإِحْسَانِهِ الْمَوْفُورِ.

فَقَالَ لَهُ مَعْنٌ: وَكَمْ أَمَلْتَ مِنْهُ؟

قَالَ: أَلْفَ دِينَارٍ.

قَالَ: فَإِنْ قَالَ لَكَ: كَثِيرٌ؟

قَالَ: خَمْسِمِائَةٍ.

قَالَ: فَإِنْ قَالَ لَكَ: كَثِيرٌ؟

قَالَ: ثَلَاثِمِائَةٍ.

قَالَ: فَإِنْ قَالَ لَكَ: كَثِيرٌ؟

قَالَ: مِائَةً.

فَمَا زَالَ بِهِ حَتَّى قَالَ: لَا أَقَلَّ مِنَ الثَّلَاثِينَ.

قَالَ لَهُ مَعْنٌ: فَإِنْ قَالَ لَكَ: كَثِيرٌ؟

قَالَ الْأَعْرَابِيُّ - وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ -: أُدْخِلْ قَوَائِمَ حِمَارِي فِي عَيْنِهِ، وَأَرْجِعْ إِلَيَّ

أَهْلِي خَائِبًا.

فَضَحِكَ مَعْنٌ، وَسَاقَ جَوَادَهُ حَتَّى لَحِقَ بِأَصْحَابِهِ، وَنَزَلَ فِي مَنْزِلِهِ، وَقَالَ

لِحَاجَتِهِ: إِذَا أَنَاكَ شَيْخٌ عَلَى حِمَارٍ بِقِشَاءٍ فَادْخُلْ بِهِ عَلَيَّ، فَاتَى الرَّجُلُ بَعْدَ سَاعَةٍ،

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ لَمْ يَعْرِفْهُ؛ لِهَيْبَتِهِ وَجَلَالِهِ، وَكَثْرَةَ حَشَمِهِ وَخِدْمِهِ، وَهُوَ مُتَصَدِّرٌ فِي

دَسْتِهِ - وَالِدَّسْتُ: صَدْرُ الْبَيْتِ -، وَالْخَدَمُ قِيَامٌ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ وَيَبِينَ يَدَيْهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ عَلَيْهِ الْأَعْرَابِيُّ قَالَ لَهُ: مَا الَّذِي أَتَى بِكَ يَا أَخَا الْعَرَبِ؟

قَالَ: أَمَلْتُ فَضَلَ الْأَمِيرِ، وَأَتَيْتُهُ بِقِثَاءٍ فِي غَيْرِ أَوَانٍ.

فَقَالَ: كَمْ أَمَلْتَ فِينَا؟

قَالَ: أَلْفَ دِينَارٍ.

قَالَ: كَثِيرٌ.

فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ فِي نَفْسِهِ: وَاللَّهِ لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ الرَّجُلُ شَوْمًا عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ:

خَمْسِمِائَةَ دِينَارٍ.

قَالَ: كَثِيرٌ.

فَمَا زَالَ بِهِ إِلَى أَنْ قَالَ: خَمْسِينَ دِينَارًا.

فَقَالَ لَهُ: كَثِيرٌ.

فَقَالَ: لَا أَقَلَّ مِنَ الثَّلَاثِينَ.

فَضَحِكَ مَعْنُ، فَعَلِمَ الْأَعْرَابِيُّ أَنَّهُ صَاحِبُهُ، فَقَالَ: يَا سَيِّدِي؛ إِنْ لَمْ تُجِبْ إِلَيَّ

الثَّلَاثِينَ فَالْحِمَارُ مَرْبُوطٌ بِالْبَابِ!

وَهَاهُوَ ذَا مَعْنُ جَالِسٌ، فَضَحِكَ مَعْنُ حَتَّى اسْتَلْقَى عَلَى فِرَاشِهِ، ثُمَّ دَعَا

بُوكَيْلَهُ فَقَالَ: أَعْطِهِ أَلْفًا، وَخَمْسِمِائَةَ، وَثَلَاثِمِائَةَ، وَمِائَةَ، وَخَمْسِينَ، وَثَلَاثِينَ..

وَدَعِ الْحِمَارَ مَكَانَهُ!

كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لَوْ كَانَ ابْنُ زَائِدَةَ، فَقِيلَ لَهُ: يَا ابْنَ نَاقِصَةَ، قَالَ:
لَا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَدَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَيَّ جَوَانِبِهِ الدَّمُ
وَتَقُومُ الْمَعْرَكَةُ!!

وَقَدْ يَكُونُ غَيْرَ قَادِرٍ عَلَيَّ إِنْفَازِ الْعِقَابِ، وَلَكِنْ هَذَا هُوَ الْحِلْمُ؛ لِأَنَّ مَعْنَى كَانَ
قَادِرًا عَلَيَّ إِنْفَازِ الْعِقَابِ لَوْ أَرَادَ؛ بَلْ عَلَيَّ إِنْفَازِ أَشَدِّ عِقَابٍ. (*).
إِنَّ الصَّفْحَ، وَالتَّسَامُحَ، وَالصَّبْرَ، وَالْوَفَاءَ، وَالْبَدَلَ.. كُلُّ أَوْلِيكَ خِصَالٌ
مَحْمُودَةٌ، وَشِيَاءٌ مَرْمُوقَةٌ، كُلُّ أَوْلِيكَ غَايَاتٌ تَقَطَّعُ دُونَ بُلُوغِهَا الْأَعْنَاقُ. (*)(٢).



(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «تَفْجِيرُ الْكِنَائِسِ وَقَتْلُ الْأَبْرِيَاءِ» - الْجُمُعَةُ ١٧ مِنْ رَجَبٍ
١٤٣٨ هـ | ١٤-٤-٢٠١٧ م.

(*)(٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ» - الْجُمُعَةُ ١١ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٢٨ هـ |
٢٤-٨-٢٠٠٧ م.

رِضَا اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَجْلُ الْغَايَاتِ

عِبَادَ اللَّهِ! مِنْ صِفَاتِ رَبَّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى صِفَةُ الرِّضَا، فَهُوَ يَرْضَى لَّا كَأَحَدٍ مِنَ الْوَرَى، وَهُوَ جَلَّ وَعَلَا مَوْصُوفٌ بِصِفَةِ الرِّضَا عَلَى مَنْ لَوْ وُجِدَ مِنْهُ مُقْتَضَى الرِّضَا؛ فَيْرَضَى عَنِ الْعَمَلِ، وَيَرْضَى عَنِ الْعَامِلِ.

يَرْضَى عَنِ الْعَمَلِ؛ كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وَيْرَضَى عَنِ الْعَامِلِ؛ قَالَ ﷺ: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١١٩].

عَنْ مِخْجَنِ بْنِ الْأَدْرِعِ الْأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى - رَضِيَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ الْيُسْرَ، وَكَرِهَ لَهَا الْعُسْرَ»؛ قَالَهَا ثَلَاثًا^(١).

إِذَا رَضِيَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنِ الْعَبْدِ؛ قَبْلَ الْيُسْرِ مِنْ عَمَلِهِ وَنَمَاهُ، وَغَفَرَ الْكَثِيرَ مِنْ زَلَلِهِ وَمَحَاهُ.

(١) أخرجه الطيالسي في «المسند»: (٢/٦٢٦-٦٢٨، رقم ١٣٩١ و ١٣٩٢)، وأحمد:

(٤/٣٣٨) و(٥/٣٢)، والبخاري في «الأدب المفرد»: (ص ٩٣-٩٤، رقم ٣٤١)،

والطبراني في «المعجم الكبير»: (٢٠/٢٩٦-٢٩٧، رقم ٧٠٤) واللفظ له.

وفي رواية: «إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ، إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ» ثَلَاثًا.

والحدِيثُ حَسَنُهُ الْأَبَانِيُّ فِي «الصَّحِيحَةِ»: (٤/١٧٨-١٧٩، رقم ١٦٣٥).

وَالرِّضَا مِنْهُ - سُبْحَانَهُ - هُوَ أَرْفَعُ دَرَجَاتِ النَّعِيمِ، وَأَعْلَى مَنَازِلِ الْكَرَامَةِ،
وَأَعْظَمُ وَأَكْبَرُ وَأَجَلُّ مِنَ الْجِنَانِ وَمَا فِيهَا؛ لِأَنَّ الرِّضَا صِفَةُ اللَّهِ، وَأَمَّا الْجَنَّةُ
فَخَلِقُ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، فَالنَّسْبَةُ بَيْنَ الرِّضَا وَالْجَنَّةِ كَالنَّسْبَةِ بَيْنَ صِفَاتِ الرَّبِّ
تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَخَلْقِهِ.

فَهَذَا الرِّضَا مِنَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا أَعْظَمُ وَأَجَلُّ وَأَكْبَرُ مِنَ الْجِنَانِ وَمَا فِيهَا؛ لِأَنَّ
الرِّضَا صِفَةُ اللَّهِ، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَخَلِقُ اللَّهُ؛ قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ
عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرَ﴾ [التوبة: ٧٢].

فَأَيْسَرُ يَسِيرٍ مِنْ رِضْوَانِهِ - وَلَا يُقَالُ لَهُ يَسِيرٌ - أَكْبَرُ مِنَ الْجَنَاتِ وَمَا فِيهَا مِنْ
الْمَسَاكِينِ الطَّيِّبَةِ وَمَا حَوْتُهُ مِنَ النَّعِيمِ.

قَلِيلٌ مِنْكَ يُقْنِعُنِي، وَلَكِنْ قَلِيلٌ لَكَ يُقَالُ لَهُ قَلِيلٌ

فَلَا شَيْءَ مِنَ النِّعَمِ - وَإِنْ جَلَّتْ وَعَظُمَتْ - يُمَاتِلُ رِضْوَانَ اللَّهِ ﷻ، وَلِهَذَا
يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»^(١): «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ
الْجَنَّةِ! فَيَقُولُونَ: لَبَيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ.

فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟

فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبُّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ!

(١) «صحيح البخاري»: (٦/٣٨٢، رقم ٣٣٤٨)، و«صحيح مسلم»: (١/٢٠١-٢٠٢،

فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ!

فَيَقُولُونَ: يَا رَبُّ! وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ!؟!!

فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا.

فِرِضْوَانُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُمَاتِلُهُ شَيْءٌ مِنَ النَّعِيمِ وَإِنْ عَظُمَ.

أَوْ مَا عَلِمْتَ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ	حَقًّا يُكَلِّمُ حِزْبَهُ بِحِنَانٍ
فَيَقُولُ جَلَّ جَلَالُهُ هَلْ أَنْتُمْ	رَاضُونَ قَالُوا نَحْنُ ذُو رِضْوَانٍ
أَمْ كَيْفَ لَا نَرْضَى وَقَدْ أُعْطِينَا	مَا لَمْ يَنْلُهُ قَطُّ مِنْ إِنْسَانٍ
هَلْ ثَمَّ شَيْءٌ غَيْرَ ذَا فَيَكُونُ أَفْ	ضَلَّ مِنْهُ نَسْأَلُهُ مِنَ الْمَنَّانِ
فَيَقُولُ أَفْضَلَ مِنْهُ رِضْوَانِي فَلَا	يَغْشَاكُمْ سَخَطٌ مِنَ الرَّحْمَنِ

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ رِضْوَانَكَ وَالْجَنَّةَ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ سَخَطِكَ وَالنَّارِ.

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ. (*)



(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ - بِاِخْتِصَارٍ يَسِيرٍ - مِنْ سِلْسِلَةِ: «مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى» (الْمُحَاضِرَةُ التَّاسِعَةُ)

- الْأَرْبَعَاءُ ١٦ مِنْ رَجَبِ ١٤٣٣ هـ / ٦-٦-٢٠١٢ م.

الْفَهْرِسُ

- ٣ مُقَدِّمَةٌ
- ٤ اللَّهُ هُوَ الْعَفْوُ الْكَرِيمُ.
- ٧ سَلُّوا اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ.....
- ١١ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الْحَلِيمُ الْوَدُودُ.
- ١٤ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.....
- ١٨ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ.....
- ٣١ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الْعَفْوِ الْكَرِيمِ!
- ٣٥ لَا تَقْنَطُوا مَهْمَا اشْتَدَّتْ بِكُمْ الْمِحْنُ!
- ٤١ تَوْبُوا وَأَنْبِئُوا وَأَسْلِمُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ!
- ٤٥ حُكْمُ الْقُنُوطِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ.....
- ٥٢ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَفْوٌ يُحِبُّ الْعَفْوَ مِنْ عِبَادِهِ.....
- ٧٠ النَّبِيُّ ﷺ الْأُسْوَةُ الْحَسَنَةُ فِي الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ.....

- ٧٣ نَمَازِجٌ مِنْ عَفْوٍ وَصَفْحٍ سَلَفِنَا الصَّالِحِينَ
- ٧٦ مِثَالُ مَضْرُوبٍ فِي الْعَفْوِ وَالْإِحْسَانِ
- ٨٢ رِضَا اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَجْلُ الْغَايَاتِ
- ٨٥ الْفِهْرُسُ

